الفصل الثالث

فى تربية الشعوب

الفصل الثالث

فى تربية الشعوب

الفصل الثالث

فى تربية الشعوب

يهدف هذا الفصل فى المقام الأول إلى التعرف على بعض الاتجاهات العالمية المرتبطة بتربية الطفل قبل المدرسة فى مختلف المؤسسات المعنية . ويترك الأمر للقارىء فى نظرته الناقدة وإبداء رأيه فيما يقرأ عن بعض شعوب العالم وهى تربى أطفالها .

ولا يضيرنا أن نستفيد من بعض نتائج خبرات وتجارب غيرنا فى ميدان التربية، كما نستفيد من إنجازاتهم فى ميادين متعددة. وأن تتم الاستفادة واضعين فى الاعتبار أساسا ظروف مجتمعنا وإمكاناته، وتعاليم الدين وقيمنا ... وكل ذلك من أجل خير المجتمع وتقدمه .

ينقسم هذا الفصل إلى أربعة أقسام رئيسية تتناول تربية الطفل قبل المدرسة . القسم الأول عن الاتحاد السوفيتى ، والقسم الثانى عن الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعترض القسم الثالث لمجموعة اتجاهات فى بعض الدول فى أنحاء متفرقة من العالم . أما القسم الرابع فيعرض فى عجالة سريعة لبعض الاقتراحات التى قد تفيد الدول النامية فى مجال تربية الطفل قبل المدرسة .

أولا : الاتحاد السوفيتى

مع الاعتراف بأن هناك اختلافات عقائدية وغيرها بين مجتمعنا ومجتمع الاتحاد السوفيتى ، إلا أننا نتناول فى هذا العرض السريع عن تربية الطفل قبل المدرسة أهم الاتجاهات السائدة فى ذلك المجتمع السوفيتى . تهدف تربية الطفل قبل المدرسة فى الاتحاد السوفيتى إلى «إمداد الطفل فى مراحل عمرية مبكرة بالظروف المادية والنفسية والاجتماعية المؤدية إلى تنمية فى شمول وتكامل ، والتى قد لا تتوفر فى المنازل أو البيئات الاجتماعية» .

وتدل الإحصاءات على أن أكثر من ١٠٪ من جميع أطفال الاتحاد السوفيتى تحت سن الثانية يلتحقون بدور الحضانة ، وأن ٢٠٪ من الأطفال فيما بين سن الثالثة والسادسة يلتحقون برياض الأطفال . ويلتحق الأطفال عامة إما بمؤسسات داخلية أو بمؤسسات يطلق عليها (مدارس اليوم الطويل) الذى يمتد من الصباح الباكر إلى بعد الظهر المتأخر ، وبذلك توفر الدولة نفقات المبيت ومستلزماته . ويحلو للبعض أن يطلق على هذه الدور والمؤسسات لفظ المجمعات أو الجماعيات ، "Collectives" . وأولوية القبول فى هذه المجمعات أو الجماعيات هى للأطفال الذين يأتون من أسر ، يعمل الوالدان وتحتم ظروفهما عدم تواجدهما أثناء اليوم مع الطفل .

وسوف نتعرف بعض الإمكانات والوسائل المستخدمة فى تنشئة الأطفال فى هذه المجمعات ونتائجها ، والتى دعت أحد المربين الأمريكيين وهو جون هـ . فيشر ، العميد الأسبق لكلية المعلمين بجامعة كلومبيا بنيويورك ، لكى يتساءل :

- لماذا يرتضى التلاميذ الأمريكيون لأنفسهم الغش فى الامتحانات ، ولا يقبل على هذا العمل التلاميذ السوفييتيون ؟

- لماذا يأخذ التلاميذ الأمريكيون أشياء لاتخصهم ، ولا يمتلكونها ولا يفعل ذلك التلاميذ السوفييتيون ؟

- لماذا يتجاهل التلاميذ الأمريكيون غيرهم ممن هم فى حاجة إلى نجدة أو مساعدة أو عون ، بينما يهرع التلاميذ السوفييتيون للمساعدة [١] ؟

ونلاحظ أنه مع تشبع هذه التساؤلات بالتعميمات إلا أن هذا يعكس اهتمام بعض الأمريكيين بالتربية فى الاتحاد السوفيتى .

وقد زار برونفينبرينر Bronfenbrenner ثلاثين مجمعا من مستويات اقتصادية متنوعة حول المدن الكبرى فى الاتحاد السوفيتى ، كما استعان بمطبوعات عن الطفولة وتنشئتها فيه ، وكتب كتابا يقارن فيه بين تنشئة الأطفال فى الاتحاد السوفيتى وفى الولايات المتحدة الأمريكية .

.... وقد لاحظنا الاهتمام الواضح والبالغ التأثير لدور التربية المنزلية فى تنشئة الطفل فى الاتحاد السوفيتى ، حيث كان برونفينبرينر يقرن الأم بالمدرسة فيقول إن الأم والمدرسة تفعلان كذا وكذا ... ومن الملاحظ أيضا أن هذا الاقتران بين البيت والبيئة المدرسية أمر وارد بصورة مستمرة فى الكتابات شرقية أو غربية عن تنشئة الأطفال قبل المدرسة ، وهذا ما يدفعنا إلى استمرار التأكيد على ضرورة وجود الصلة التعاونية بين هاتين البيئتين لصالح الطفل كفرد وكعضو ، سوف يسهم فى الارتقاء بمجتمعه بعد أن يتم تكوين اتجاهات لديه مثل الانتماء والولاء لمجتمعه الصغير والكبير . ومما يساعد

---

(١) جون هـ . فيشر John H. Fisher.
Urie Bronfenbrenner, Two worlds of Childhood, U.S.A and U.S.S.R., Pocket Books, New York, N.Y., 1973.

(٢) المرجع السابق .

على هذا التعاون بين البيئتين المنزلية والمدرسية فى الاتحاد السوفيتى ، أما أن تكون الأم متعلمة ، أو أنها تزود بعديد من النشرات والكتيبات التى توضح لها بأسلوب سهل وبالصور والأمثلة كيف يمكن أن تتعامل مع أطفالها فيما يدعو إلى نموهم السليم، خاصة فى تكوين الاتجاهات والقيم ، مما لايتعارض مع الهدف الذى تسعى إليه تربية الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة .

ومما يلفت النظر أن الاهتمام الأكبر عند البيت فى تنشئة الأطفال حتى قبل ذهابهم إلى مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية هو تعويد الطفل الطاعة ، طاعة الأوامر التى تلقى إليه ، وأن يسمع الكلام وينفذ ما فيه ، ويتم كل هذا فى لهجة وأسلوب مغلف بالمحبة والتعاطف والحنان . بل إن الطفل لكى يطيع ... تحاول الأم أو الأب أو الكبير إقناعه بضرورة تنفيذ ما يكلف به ، ويتم ذلك بضرب الأمثلة أو قص الحكايات الصغيرة ، أو بالمحاكاة وتقليد ما يفعله غيره . وقد لايطيع بعض الأطفال بعض الأوامر وهنا يكون التأنيب فى بداية الأمر خفيفا هينا لاخشونة فيه ، وخاليا من عقوبات قد تؤلمه نفسيا أو جسميا . وإذا استشرى العناد فى طاعة الأوامر .. فيبدأ سلوك من الكبير نحو الصغير ، يشعر الأخير فيه أن جزءا من الحنان والحب اللذين عهدهما يسحبان تدريجيا منه . وقد يتم هذا السحب بوسائل عدة كالتغيير فى ملامح وجه الكبير ، أو فى رنة صوته أو حتى لمسة يده على جسم الطفل ، أو فى عدم الاهتمام بالإصغاء لما يقول ، أو ربما فى صمت له معنى ... وهنا يشعر الطفل أن ثمة تغييرا لدى الكبير قد حدث ، وأن هذا التغيير يمسه هو ، وقد يصل إلى أنه هو سبب هذا التغيير ، وأنه قادر على إعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية كما كانت حتى يعود تدفق الحب والحنان يملأن وجدان الصغير .

منذ بواكير البداية فى المجمعات السوفيتية تبدأ المنشئة - وهو الوصف الذى يطلق على من تقوم بتربية الأطفال - فى تكوين لغة مشتركة للتعامل بينها وبينهم ،

كأن تستخدم حركة من يدها تعنى الصمت التام ، أو حركة أخرى تعنى التصفيق ، وثالثة تعنى حرية الحركة ... ويتم هذا وغيره مع مراعاة أمر وجد أنه عميق الأهمية ، وقد يراه بعض القراء شديد الغرابة ، ذلك أن المنشئة تخفض من قامتها حتى يصبح وجهها مع مستوى وجوه الأطفال ، فتكون عيناها فى أعينهم وليست هى عالية تنظر إليهم من عل ، ولا هم من أهل تحت يطيلون أعناقهم لينظروا إليها وهى فوق ، وإنما هى معهم فى قامتهم ، وفى لغة كلامهم ، وفى البساطة المحببة إلى نفوس الصغار .

وفى مواقف أخرى لاتضطر المنشئة إلى الانحناء حيث يكون موقع الأطفال على مستوى عال عن أرضية الغرفة ، وبذلك يؤدى هذا الموقف إلى تخطى فاصل الطول بين الأطفال والمنشئة . الأمر المهم هو هذا التجاور والاقتراب بين من تنشىء ومن ينشأون، أو ما يمكن أن يطلق عليه أيضا «التفاعل وجها لوجه» ، وهذا هو الأساس الأول .

أما الأساس الثانى فهو النظام المخطط لكل طفل ، والمقصود منه تدريب الوظيفة الحسية / الحركية وهذا النظام المخطط هو ما يطلق عليه النفسيون الغربيون تعبير «جدول للتعزيزات فى تتابع زمنى» . ويقتضى هذا الجدول تقضى المنشئة فترة زمنية محددة مع كل طفل بهدف تدريب وتنمية حواسه مثل اللمس والسمع والبصر ... فقد يتدرب الطفل على متابعة جسم متحرك على خط أفقى أو على خط رأسى ، ويتدرب على اتزان اتجاه كفه ليلمس هذا الجسم أو غيره وذلك على أبعاد مختلفة ، وقد يتتبع مصدر صوت موسيقى آت إليه من مكان ما ...

أما الأساس الثالث فهو تعويد الطفل الاعتماد على النفس فى أداء بعض الأعمال البسيطة الخاصة به ، مثل لبس الحذاء أو خلعه والذهاب إلى دورة المياه وغسل يديه ... إلخ .

ويتم تنفيذ هذه الأسس الثلاثة من خلال التعامل بين المنشئة والأطفال مستخدمين لغة يجب على الأطفال محاكاتها فى النطق الصحيح والتعبيرات السليمة على أن تكون جمل المنشئة قصيرة وواضحة المعانى ، وإذا أصدرت للطفل أمرا كأن يلمس شيئا فعليها أن تجهز مكان الشىء ليلمسه الطفل . ومن الأمور المهمة أن هذه الأوامر أو التوجيهات تصدر فى رنة صوتية مشبعة بالحب والحنان ، ومعززة بوجه صبوح يراه الطفل أمامه حتى تقوى العلاقة بين الاثنين .

يأتى نمو السلوك الاجتماعى للطفل ممتطيا جواد نموه اللغوى ، فعن طريق اللغة يكون تفاعل بين الطفل وغيره . وليست اللغة مجرد كلمات أو تعبيرات وحسب ، ولكن أيضا طريقة قولها لغيره ، بما يشيع فيها من صفات الألفة والمودة والتعاطف .

ويتجلى السلوك الاجتماعى فى تعويد الطفل باستمرار كيف يشارك غيره من الأطفال فى أنشطة مختلفة ، وكيف يتعاون معهم لتحقيق عمل مشترك . بل إن هناك بعض أدوات اللعب التى تتطلب اشتراك طفلين أو ثلاثة فيها والاستمتاع بها . ويكون الاهتمام أيضا بالملكية الجماعية حتى يقل ماأمكن ذكر عبارة (هذه لى وحدى) أو (هذا ملكى أنا) فالمبدأ هو (ما هو لى هو ملك للجميع وما هو للجميع فهو ملكى) . وقد يشترك الأطفال أيضا فى الاستماع إلى الموسيقى أو إتيان حركات ايقاعية ، أو العزف على مجموعة من الآلات الموسيقية الصغيرة ، أو أداء بعض الأناشيد مما يشعر الطفل أنه واحد فى جماعة ، وانه يشارك غيره فى إتمام عمل ما .

تهدف المجتمعات إلى الوصول بالأطفال إلى مرحلة اعتمادهم على أنفسهم كمجموعة فيما يمكن أن نطلق عليه تعبير (الحكم الذاتى) ، وفيه تنسحب المنشئة تدريجيا ، تاركة للمجموعة زمام القيادة والأحكام ، بحيث يكون الفرد مسئولا أمام المجموعة عن تصرفاته . والرجاء هنا أن تؤخذ هذه التعبيرات التى ذكرت عن الحكم الذاتى بمدلولاتها الصحيحة فى إطار أعمال وتصرفات تصدر من أطفال ما زالوا

صغارا، ولكنهم فى نفس الوقت خاضعون لمجموعة من القواعد اعتادوها ومارسوها بعد اقتناع ، والمطلوب منهم أن يستمروا فى العمل الصحيح المرغوب فيه ، دون وجود كبير - كالمنشئة مثلا - يراقب سلوكهم . وإنما الجماعة هى الرقيب .

وتبدأ قصة هذا التكوين منذ أول يوم يزف فيه الطفل إلى المدرسة ، وهو يوم عيد بحق . كل شىء فى المجتمع الصغير المحلى الذى تقع فيه المدرسة يكاد يزغرد طربا والأطفال يدخلون باب المدرسة لأول مرة ، غالبا فى صحبة أحد الوالدين أو كليهما. وهو يوم لاينسى عند الأطفال فهم يبدأون بمقابلة المدرسات أو المنشئات ، وقد يحمل بعضهم زهورا تعبيرا عن ابتهاج حاضر وأمنية مضت وحققت وشكر لما هو قادم . المدرسات باسمات فى حماس جدية العمل المرتقب ، وسحابة من العاطفة الحانية تغطى الموقف برمته ، كأن الجميع على موعد سعيد ، وهو لقاء الصغار مع كبار يساعدون الوالدين والأسرة فى العملية التربوية .

وتمر الأيام ويعتاد الطفل بدء كل يوم بالمدرسة بتحية المنشئة ومن يقابله من العاملين بالمدرسة ، ثم تحية لغيره من الأطفال ، وأخرى خاصة وبالاسم للطفل الذى يجاوره فى حجرة الدراسة (إن صحت هذه التسمية) .

وتهدف عملية التنشئة إلى التكوين الخلقى عند الطفل (كما تراه الشيوعية) . وقد حددت لهذا التكوين برامج إجرائية ، يتعرض لها الأطفال بفاعلية فى المدرسة والبيت والمجتمع . ولكل سن برامجه الخاصة به فى تفصيل يحدد بالدقة ماذا يجب على الطفل عمله فى تلك البيئات الثلاث .

وتحتل المدرسة أو المنشئة مكانة عالية عند الأطفال وأفراد المجتمع والهيئات المسئولة للدور شديد الأهمية الذى تقوم به فى بناء أجيال المستقبل . هذا البناء يتركز على تكوين أصيل للمبادىء الخلقية التى لولاها لهدد المجتمع السوفيتى برمته .

ولذلك .. فإن مسئولية المنشئات خطيرة ومعترف بها على كافة المستويات وأجرها المادى طيب . وطبعا تعد هذه المنشئة إعدادا تربويا ونفسيا خاصا على المستويين النظرى والعملى ، قبل أن يسمح لها بالتعامل مع أطفال هذا السن المبكر ، وقبل أن تقوم بتنفيذ البرنامج المعد تفصيليا لكل سن .

وعلى سبيل المثال :

تنتظر من طفل سن السابعة أنواعا معينة من السلوك الأخلاقى ، أعد لها فى سنين سابقة وتدعمه المدرسة الابتدائية فى تعزيز مؤكد . و من أمثال هذا السلوك :

فى المدرسة

الحضور فى المواعيد المحددة ، إلقاء التحيات السابق ذكرها . إطاعة تعليمات المدرسة ، وضع الألعاب والأشياء فى أماكنها المحددة ، ومراعاة آداب الحديث عند مخاطبة الكبار ، كأن يقف قبل أن يتحدث إلى المنشئة ، ويستأذن قبل البدء فى عمل ما ، مراعاة الوقفة والجلسة والحركة الجسمية السليمة صحيا ، والمشاركة فى الأعمال الجماعية مثل تنظيف الحجرة وترتيبها ...

لاحظ أن كل هذه الأعمال وغيرها تتم بناء على تعليمات وتوجيهات من المنشئة وعلى الأطفال دائما طاعتها .

وقد تلجأ المنشئة - فى بداية الأمر - إلى تعزيز سلوك الأطفال وتشكرهم وتثنى على هذا السلوك ، ولكن بعد أن يتأصل ذلك فيهم تصبح هذه الأعمال من الواجبات والأمور التى يجب على الأطفال أداؤها ، وهنا فلا شكر على واجب .

هكذا ينشأ الطفل فى المدرسة ، وفى نفس الوقت يكون هناك تدعيم لهذه التنشئة فى البيت .

- فى البيت

على الطفل تقع مجموعة من الالتزامات والأعمال تلقى عنها التعليمات والتوجيهات والأوامر من المنشئة فى المدرسة ، وممن هم أكبر منه فى البيت الذين يتابعون سلوك الطفل . ومن هذه الأعمال العناية بملابسه كترتيبها وتعليقها ، بل أحيانا كيها إذا سمحت الظروف ، بل ينتظر منه أن يثبت زرا فى قميصه إذا لزم الأمر ، ويلمع حذاءه ، كما يشارك فى بعض الأعمال المنزلية البسيطة .

وتؤكد التنشئة الأخلاقية على ضرورة أن يشكر الطفل من معه فى البيت على ما يقدمونه من أعمال له . وللشكر معان عميقة تنمو مع نمو الفرد منذ بواكير الطفولة وغالبا ما يقترن الشكر بالابتسامة .

ولعلنا فى مجتمعنا المصرى نؤكد - منذ الأعمار الصغيرة - على دوام شكر الله وحمده وشكر الغير فهذا يزيد الروابط ألفة حتى مع الغرباء . لاينسى المؤلفان رجلا ضخم الجسم قابلهما ذات مرة فى الطريق ، وسأل فى جفاء وجفاف واضحين عن الساعة. وقيل له كم كانت الساعة . ومشى . وكما كان فى سؤاله قليل الذوق فإنه أيضا لم يشكر ... علامات التعجب والدهشة تحيط بنا ثم بعد هنيهة قصيرة سرعان ما تبخر الاستعجاب ، وقس على ذلك ما شئت من الأمثلة .

هكذا ينشأ الطفل السوفيتى فى البيت والمدرسة معدا للتعامل مع الآخرين فى المجتمع .

- فى المجتمع

صغيرا أو كبيرا كيفما يكون ذلك المجتمع ، محليا كان أو على مستوى الدولة، أو ربما على المستوى العالمى ، المفروض ألا تغيب عن الطفل أمور لها دلالتها فى علاقته مع الأفراد صغارا أو كبارا وفى تعامله مع الممتلكات العامة . وهو يحتك

بعناصر المجتمع، وقد وعى من قبل وبعمق أن الممتلكات العامة هى أيضا ممتلكاته، وكما يراعى ما يملكه هو وخاصا به فعليه أن يراعى ما يملكه غيره وما يملكه المجتمع . بل إن الخوف والمحافظة عليها أمران ضروريان . إن الزهرة الجميلة فى حديقة عامة هى ملك الجميع ، ولا يجب أن يقطفهاأحد ليتمتع هو فقط بهذا الجمال وهذا الشذى العطر . وقس على ذلك ما شئت من الأمثلة عن النظافة والأمانة ، وعدم إزعاج الغير ، ومراعاة شعورهم وإحساساتهم ، والصوت المنخفض والهادىء دون صياح أو عويل ... إلخ .

أرأيت ذلك الرجل مع ابنه طفل السادسة تقريبا مبتسما ، وهو يراه يدوس بقدميه حشيشا أخضر زاهى اللون وشجيرات قليلة من الزهور تحاول أن تنمو لتكون بهجة للمارين فى حديقة صغيرة تتوسط ميدان الجامع بمصر الجديدة ... وكأنما هى نجت من الماعز التى تجوب الحى الذى لم يعد صحراء ... !! لقد رأيناهما وهما يقترفان هذه الجريمة وعجب الأب جدا عندما وجهنا نظره لما يفعله ابنه فلذة كبده .

وتهتم التربية السوفيتية فى هذه المرحلة المبكرة من نمو الأطفال ، رجال المستقبل، بضرورة تعرفهم على المناشط البشرية فى المجتمع المحيط بهم ، كأعمال الحدادة والنجارة وما يدور داخل المخابز وأنواع الحوانيت المختلفة ، وما تقدمه من خدمات لأفراد المجتمع حتى يقدر الطفل ما يسهمون به ويصبح هو أيضا راغبا فى عمل يفيد به غيره على مختلف مراحل نموه .

ومن الظريف أن مواقف الخبرات التى يمر بها الطفل فى البيت أو المجتمع يحكى عنها فى المدرسة أمام زملائه وتحت إشراف المنشئة ، وغالبا ما يدور حوار ، وتثار تساؤلات (بعد هذا التقرير القصير) الذى ينمى الحصيلة المعرفية عند الأطفال ، وإن كانت هذه الحصيلة متواضعة فى كمها ، ولكنها تزداد تدريجيا مع سنوات الدراسة . بل إن تبادل هذه الخبرات بين الأطفال يوضح لهم أهمية المشاركة والتعاون فى الحياة ، فالجميع (بقدر المستطاع) مسهمون .

ومن الجدير بالذكر أن الأعمال التى يكلف بها الأطفال فى هذا السن سواء فى المدرسة أو البيت أو المجتمع تنسحب على الذكور والإناث على السواء .

* * *

سؤالان ضروريان بعد هذا العرض الموجز عن التنشئة فى مؤسسات ما قبل المدرسة فى الاتحاد السوفيتى .

السؤال الأول هو : مامدى تأثير الظروف الاجتماعية على هذه التنشئة؟

فالملاحظ أنه بعد الحرب العالمية الثانية فقد الاتحاد السوفيتى ملايين الرجال فوصلت نسبة النساء إلى الرجال إلى أكثر من ٢٠٪ زيادة ، ومؤداها أن تلعب الأم دورا بالغ الأهمية فى تربية الأطفال ، خاصة أن كثيرين من الآباء غير متواجدين بالبيت بالدرجة اللازمة . وقد أشبعت الأم أطفالها بحنان وعطف زائدين ، وفى نفس الوقت طالبتهم بالطاعة المستمرة لما تلقيه من توجيهات ، كما حملتهم أعباء مسئوليات فى وقت مبكر تتدرج فى ثقلها مع النمو العمرى للفرد .

والسؤال الثانى هو : ما مدى تأثير تلك التنشئة على سلوك الأفراد فيما بعد ؟

والمقصود هنا كيف يسلك أطفال تلك الجماعيات عندما يكبرون ؟ هدفت التنشئة فى كل من البيئتين المنزلية والمدرسية إلى أن تعزز كل بيئة منهما الأخرى لتنشئة أطفال، يتوافقون مع مستويات الراشدين فى السلوك الخلقى المطلوب والمرغوب فيه . وقد لاحظ فريق من الباحثين التربويين والنفسانيين الذين مروا بخبرة هذه الجماعيات وتلقوا تنشئتهم الأولى فيها . ففى سلوكهم الخارجى هم مهذبون ، متنبهون، ومجدون فى العمل، كما يظهرون دافعية قوية ورغبة فى التعلم ، واستعدادا متميزا لخدمة مجتمعهم . وعلى العموم ... فإن هؤلاء الباحثين يرون - وهم فى

دهشة - أن لهؤلاء الشباب اتجاهات مثالية نحو الحياة . وسبب دهشتهم لهذا الاتجاه أنهم ما كانوا يتصورون أن الفلسفة السوفيتية المادية تنتج هذه الاتجاهات التى وصفوها بأنها مثالية .

ويكتب برونفنبرينر عن نتائج دراسة مقارنة بين أطفال الاتحاد السوفيتى وبريطانيا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية فيقول : إن نتائج الدراسة أثبتت أن أطفال الاتحاد السوفيتى أقل من غيرهم رغبة فى المشاركة فى أعمال ضارة اجتماعيا . ولكن نتائج دراسات أخرى أبانت أنهم أقل من غيرهم من جنسيات أخرى فى قول الصدق ، وفى محاولات التفهم العقلى لأسباب ماقد يصادفهم من مشكلات .

هذا ... وهناك تغيرات اجتماعية واقتصادية فى الاتحاد السوفيتى ، مثل الضغوط الاقتصادية ، وارتفاع نسبة الرجال إلى النساء عما كانت عليه ، وخفض عدد ساعات العمل اليومية إلى ٦ أو ٧ ساعات فقط ... مما دفع بعض الباحثين من داخل الاتحاد السوفتى وخارجه إلى التنبؤ بأن ثمة تغييرات قد تحدث فى سياسات وأساليب تنشئة الأطفال ، إن لم تكن قد بدأت فعلا فى الحدوث . وعلى سبيل المثال فمع أن الجماعيات هى مؤسسات ناجحة فى تخريج مواطنين متوافقين مع المستويات الخلقية التى يحددها الكبار ، إلا أن القضية المطروحة هى أن تخريج دفعات متتالية من أفراد متماثلين وعلى طراز واحد من المستوى العالى من التوافق الاجتماعى قليل الفائدة بالنسبة للمجتمع ولشخصيات الأفراد أنفسهم . إن المجتمع الاشتراكى فى حاجة إلى أفراد متميزين وليسوا بالضرورة ممتازين وليسوا نسخا متكررة ، حتى يكونوا قادرين على عمل تغييرات جوهرية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا وفى عمليات إدارة وتنظيم الانتاج . وبالنسبة للشخصيات .. فإن كل شخصية منها يهمها أن تنمى ما لديها من قدرات فطرية إلى الحد الأقصى ، وتختلف هذه القدرات من فرد إلى آخر ... وهكذا تتفق رغبات وأهداف كل من المجتمع والأفراد .

ثانيا : الولايات المتحدة الأمريكية

كان القرن الخامس عشر الميلادى يلفظ سنواته الأخيرة ، وكريستوفر كولومبس يتجه مع رفاقه غربا فى المحيط الأطلسى ، آملا الوصول إلى جزر الهند فى شرق آسيا طالما ساد الاعتقاد أن الأرض كروية . ولكنه حط ورجاله على أرض ما كانوا يتصورون أنها بهذا الاتساع ، وكان عالما جديدا يكتشف على ظهر الأرض .

ولجأت إلى هذا العالم الجديد أعداد وفيرة من الذين قاسوا اضطهادا دينيا أو سياسيا ، أو ممن وقعت عليهم عقوبات . وانفتحت أمام شعوب أوروبا أراض واسعة رحبة بها أمن وبعد عن حروب ، طالما أنهكت أوروبا وخضبت أرضها بالدماء الغزيرة ، وأكسبتها نزعات سياسية وخلافات دينية جعلت الأرض الخضراء والجنان الفيحاء تحمر خجلا من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وتفوح منها روائح عفنة تصيح بأن هذه نهاية الحقد والكراهية .

وطالت النزاعات فى الأرض الجديدة بين سكانها الأصليين ، وهم الهنود الحمر ، وبين الذين يريدون أن يمكنوا لأنفسهم على هذه الأرض الواعدة بخيرات كثيرة، هى بكر على سطحها وفى باطنها . وقد اتجه القوم إلى تأمين معاشهم فى سكنهم وغذائهم وحماية نفوسهم ، وانصب تفكيرهم على هذا . وتمر سنوات طويلة عندما يبدأ التفكير فى التربية والتعليم . واعتمد هذا التفكير على سياسة استيراد المبادىء والأسس التربوية ، تماما كاستيراد الملابس والآلات الخفيفة والثقيلة من الوطن الأم فى أوروبا . ولكن الضرورة دعت عندما ساد شىء من الاطمئنان - إلى حاضر واقع وإلى مستقبل قريب - إلى فتح (مدارس) ذات طابع خاص يرضى ماهو موجود وما هو مطلوب.

وعرفت الأرض الجديدة المدرسة ذات الواجهة الحمراء وذات الحجرة الواحدة التى تضم أعمارا مختلفة ، وصفوفا أيضا مختلفة . وكان ثمة شىء حادث من التعليم ، ولا شىء حادث مما يمكن أن نطلق عليه تعبير (التربية عملية نمو) . ولكن الأمور لاتبقى على حالها فيتطور المجتمع وتنتهى الحروب بين الشمال والجنوب . ويكون استقلال للولايات عن المستعمرين الأوربيين ، ويكون علم واحد ، وتهتز سنابل القمح فى ملايين الهكتارات على الأرض ، وينقب العمال والمهندسون فى باطن الأرض عن مناجم تحوى معادن عديدة ، كما تلفظ بعض المناطق سائلا غليظ القوام أسود اللون . ويتغير وجه التربية ليحاكى الأرض الأم فى أوروبا . وعندما يتمكن الأمريكيون من أرض وطنهم ، وينعمون بما قيض لهم من خير كثير زاده عملهم وكدهم وتعبهم ، بدأوا يفكرون فى أمور تربية الأطفال والغلمان والشباب . وفتحت المئات من المدارس ، والعشرات من الجامعات التى استجلبت لها أساتذة من جامعات أوروبية ، بل ونقلت طراز العمارة كما هى محاكاة لتلك الجامعات العتيدة ذات التاريخ فى أوروبا الغربية .

وربما كانت الولايات المتحدة الأمريكية أول دولة فى العالم نادت بمجانية التعليم، فانتشرت المدارس التى تمولها سلطات الولايات وتستقبل الأطفال فى سن السادسة. كما أنشأت مدارس شبه عليا لإعداد المعلمات والمعلمين للعمل بهذه المدارس.

ويتقدم المجتمع فى خطى واثقة ومستمرة نحو مزيد من الرقى والازدهار، فيسابق الزمن فى شق الطرقات ، والتوسع فى التعليم العالى ، والتفوق فى الصناعة ، والتوسع فى الزراعة ... وفى كل مناشط الحياة التى ترفع هذا المجتمع إلى درجات سريعة عليا ، جعلت له تأثيرا فاعلا فى الحرب العالمية الأولى .

وظهرت قبل هذه الحرب اتجاهات فى التفكير التربوى ، ولكن الاهتمام كان محدودا جدا بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية ، أو العامة عندهم وهم يسمونها Elementary School .

إن ما يهمنا هنا هو ذلك الذى حدث فى قصة الاهتمام بتعليم أطفال ما قبل المدرسة فى هذا المجتمع الذى كان يتقدم داخلا مرحلة التصنيع . ولهذه القصة فصول تتدرج مع تدرج الفلسفات التى تتحكم فى تحديد أهداف هذه التربية التى تقدم لأطفال ما قبل المدرسة .

أولا مع بداية هذا القرن كان التأثير الانجليزى سائدا ، وهو الاهتمام الأساسى بالصحة ومراعاة قواعدها فى كل ما يتصل بالطفل ابتداء من نظافته الشخصية مستمرا إلى ملبسه وغذائه وعاداته وراحته ولعبه . وكانت الآراء وتعليمات الأختين ماكميلان MacMillan – اللتين بدأتا فى افتتاح مدارس فى لندن لرعاية أطفال الأمهات العاملات فى المصانع – التأثير الأساسى فى تحديد أهداف وبرامج تربية الأطفال بمدارس الولايات المتحدة الأمريكية . كان لهذه المدارس طابع ومذاق الخدمة الاجتماعية ، فكانت الاختان ماكميلان تحاولان تعويض هؤلاء الأطفال ما يفتقدونه فى أسرهم من غذاء صحى ، وتعرض للهواء الطلق وأشعة الشمس ، والتمتع بقسط من الرياضة والترويح . كان الاهتمام بالأطفال فى هذه المدارس وكأن الطفل هو بالدرجة الأولى جسم ينمو ، وأن هدف المدرسة هو تهيئة الظروف الصحية المناسبة لنمو هذه الأجسام . وتتمثل هذه الرعاية الصحية المكثفة فى مجموعة من الطقوس اليومية التى يجب أن تتم فى ترتيب معين ونظام لايتطرق إليهما أى خلل . إذ كانت تحية الصباح من الممرضة للطفل أن تفحص فمه وحلقه ويديه وجلده وعينيه .. إلخ ، قبل أن يسمح له بأن ينضم إلى موكب اليوم المدرسى . وتمركز دور المدرسة فى تأكيد ترسيخ العادات الصحية لدى الأطفال فى كل أعمالهم ، خاصة فى الاهتمام بالنظافة والعناية بالملابس ، وكانت دائما تعطيهم الأمثلة وتمثل أمامهم ما يجب عمله مما يتمشى مع مفهوم العادات الصحية المقبولة فى ذلك الوقت ، فلا يمسح الطفل عينيه بأصبعه ، ولا يضع أصبعه فى فمه ، ولا يلمس أشياء ثم يحك جلده ، أو يتناول طعاما مكشوفا ، أو طعاما وقع على الأرض ... إلخ .

ثانيا ويبدأ الفصل الثانى فى مراحل تطور أهداف مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية باتجاه أرنولد جيزيل A. Gesell من معهد ييل لنمو الطفل ، عندماأضاف بعدا جديدا لدور هذه المؤسسات فى النمو الجسمى ومراعاة حاجات الأطفال . فقد كشفت دراساته عن وجود نظم تتابعى لنمو المهارات الحركية عند الطفل ، ووضع قائمة بمراحل تطور هذا النظام بعد دراسات مستفيضة قام بها . واندفع القوم فى حماس كالعادة متبعين الجديد والمستحدث وظنوا فى تهافتهم الشديد أن الطفل الذى لاتتم تصرفاته فى هذا التتابع يكون به خطأ ما . وصنفوا الأطفال إلى قسمين قسم سوى وهو الذى يظهر فى تصرفاته الحركية ما يتفق مع الجدول المدرج ، وقسم آخر به خطأ ما لأن التصرفات الحركية فى مرحلة ما لم تكن متوافقة مع ما جاء بالجدول . والطريف أن جيزيل أشار فى مناسبات عدة إلى أن الأطفال يختلفون فى درجات نموهم التى تفصح عن نفسها فى سلوكهم ، وأن الأطفال ليسوا سواسية بهذه الدقة وهم ينمون ، إذ إن بينهم فروقا ... ولكن للأسف فإن التمسك الجامد الغبى بالجدول الموضوع سبب سرعة صدور أحكام من المدرسات بل والأمهات على بعض سلوك بعض الأطفال الأسوياء إلى الدرجة التى أدرجوا فيها فى صف غير الأسوياء ... وهم أبرياء ، ونموهم طبيعى لاغبار عليه، وإنما كسا الغبار وجوه المدرسات .

ثالثا وجاءت هاريت جونسون Harriet Johnson منادية بأن يكون الاهتمام بجسم الطفل أكثر من مجرد العناية بصحته والمحافظة عليها ، وإكسابه عادات صحية مناسبة ، فقد اهتمت بتنمية عضلات الطفل الكبرى تلك التى يمكن للطفل بواسطتها أن يخط خطوطا أو أشكالا كبيرة ، ويقفز ويتسلق ويجرى ويسبح ، وهذه مهمة تقوم بها العضلات الكبرى فى براكير الطفولة . وأكدت هاريت ضرورة وجود أدوات وأجهزة وإمكانات (وهى أشياء لاتتكلف كثيرا مثل بعض الشباك التى يتسلقونها ، براميل خشبية يدحرجونها أو يخترقونها من جهة إلى أخرى ، ألواح خشبية للتأرجح ،

مكعبات خشبية كبيرة يكونون منها ما شاء لهم من أشكال ... إلخ) فى مؤسسات ما قبل المدرسة لتنمية تلك العضلات الكبرى . أى أنه إلى جانب العناية بالصحة صارت رعاية للتكوين العضلى للأطفال .

وكانت هاريت جونسون مهتمة أيضا بملاحظة سلوك الأطفال ، على أن تقوم المدرسات بتدوين ما يرونه وما يلاحظنه من مختلف أنواع السلوك الطفولى ، وكان قصدها من هذا ، التعرف على حاجات الأطفال من خلال ما يصدر عنهم من سلوك .

وقد تأثرت مؤسسات تنشئة أطفال ما قبل المدرسة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية هذا القرن بآراء عديد من المفكرين التربويين والفلاسفة الأوروبيين، أمثال جان جاك روسو ، بستالوتزى ، وفرويل ، ومنتسورى الذين أسهموا إما بتهيئة مواد اللعب الذى من خلاله يتعلم الأطفال مثل هدايا فرويل وأدوات منتسورى ، أو بما قدموه من آراء فلسفية عن تربية الطفل والتى قالت إن الأطفال يتعلمون بالاحتكاك المباشر بعناصر البيئة ، أو بمرورهم فى خبرات يخرجون منها وقد اكتسبوا معلومات أو عادات ، اكتسبوها هم أنفسهم ، أى أنها لم تعط لهم أو يلقنوها من المدرسات أو غيرهن ، أى أن الخبرة المباشرة لها الأهمية بالدرجة الأولى .

وكان اتجاه تعليم الطفل بالخبرة المباشرة التى يمارسها حدثا جديدا على التعليم فى رياض الأطفال الأمريكية فى مطلع هذا القرن . إذ خرج الأطفال مع مدرساتهم إلى الحقول المجاورة ورأوا الزرع والطيور والحيوانات رؤية حقيقية، تختلف عن رؤية الصور الموجودة فى الكتب ، وعرفوا من أين يأتى اللبن الذى يشربونه ... (حدث بعد سنوات أن بعض أطفال من مدينة نيويورك سئلوا عن المصدر الذى يأتى منه اللبن ، فقال البعض من القطط البيضاء أو الأرانب ناصعة البياض ، وبعضهم قال من عند البقال . لم ير فى ذلك الوقت أطفال نيويورك حيوانات كالبقر والجاموس ، فليس فى هذه المدينة الكبيرة مزارع ولا حيوانات حقل) . كما زار الأطفال فى المدن الكبرى المصانع والموانى

إن وجدت ، ودور الصحف وما إليها مما يمكن أن يثرى ما يتحصلون عليه من معرفة بالطريق المباشر لا عن طريق نقل المعلومات اليهم بواسطة المدرسة أو الراشدين . وبذلك فإن الطفل يرى ويلاحظ ويسمع ، ثم يكون لنفسه مفهوما عن المطبعة وعملها مثلا ، ثم يعبر الأطفال عن المفاهيم التى كونوها أما بالرسم البسيط ، أو عمل نماذج من الصلصال، أو بتمثيل الأدوار . ومن الملاحظ خلو الدور السابقة للمدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت المبكر من هذا القرن من ركن العرائس ، الذى انتشر بعد ذلك وعم كل الدور. وهذا الركن عبارة عن مكان صغير فى الحجرة يحوى ما يشبه المنزل ، وأثاثا ، ودمى مختلفة .

ونما الفهم عند الطفل فى هذه المرحلة ، وعلى يد هاريت أيضا ... فصار اعتراف بأن للأطفال عقولا إلى جانب الأجسام ، وإن هذه العقول تفهم ما يصل إلى الطفل عن طريق حواسه ، ويترجم هذا الفهم فى صور شتى تختلف باختلاف الأطفال فى تفاصيلها وجزئياتها . إذن فالطفل إلى الآن له صحة يعتنى بها ، وجسم محتاج إلى الحركة ، وعقل يفكر به ... فلابد إذن أن يزود بمجموعات من الألعاب والأدوات التى تجعل الأطفال يفكرون . وهذه الألعاب تختلف عن عمليات مثل الجرى والقفز أو تبادل الكرة بين الأفراد ، ذلك لأنها تتطلب أمورا أكثر من مجرد تحريك العضلات .

يدخل الأطفال حجرة تناثرت فى أرجائها كتل خشبية فى أشكال وأحجام وألوان مختلفة . كانت موجودة منذ اليوم الماضى ، وباتت الليل ، وأصبح الصباح وهى فى أماكنها كما هى . ولكن طفلا وعنده فكرة ، وطفلا آخر وعنده فكرة أخرى ، وطفلا ثالثا وعنده فكرة ثالثة ، ويتعامل كل طفل مع هذه الكتل يبنى منها شيئا أو يتخيلها شيئا . فالفكرة زائد الجمال كونا معا شيئا . وطفل رابع اقترب من كتلة أخرى تصورها حصانا ، أى أضفى عليها معنى فكانت فى تصوره ذلك الحيوان .. .وعندما فكر الطفل أن تكون الكتلة حصانا كان يعرف ما الحصان ، وماذا يفعل ، وماذا يفعل معه

الإنسان . ولا مانع من تدخل المدرسة من وقت لآخر للتشجيع لاستثارة الابتكار إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

رابعا وأخيرا اعترف بأن للطفل انفعالات تؤثر فى تعلمه وفى علاقاته وفى إدراكه لذاته وثقته بنفسه . وفى هذه المرحلة دخل التحليل النفسى رياض الأطفال، بمعنى أن هناك عوامل داخلية عند الطفل تؤثر فى سلوكه الظاهرى . وكان ضروريا على المدرسات معرفة المحركات (الديناميات) التى تعتمل داخل الطفل وتحدد أنواع التصرفات التى تصدر عنه . ولم ينتظر من المدرسات أن يتعمقن فى حكاية التحليل النفسى هذه ، ولكنهن صرن على وعى بمراحل النمو الانفعالى عند الأطفال ، وأسباب السلوك والانطواء بعيدا عن الغير ، وبعض أسباب أنواع من السلوك غير السوى .

كان هذا الوعى الجديد بأهمية انفعالات الطفل ومراحل نمو هذه الانفعالات وانعكاساتها على سلوكه دعامة قوية فى تعرف المربين والنفسانيين على حاجات الطفل النفسية ، وأهمية مراعاتها فى التنشئة ، والأضرار التى تلحق بالأطفال إذا تجاهل الكبار هذه الحاجات ، ولم يشبعوها عند الأطفال .

والظاهر أن معرفة حاجات الطفل وفهم بعض مسائل التحليل النفسى أدى إلى إدراك جديد لانفعالات الأطفال ، فصار ينظر إليها نظرة فيها شىء من التعاطف ، أى عدم رفضها كلية ومحاولة البحث عن أسبابها ، ومعنى ذلك أن الأطفال فى هذا السن كسبوا كثيرا من الكبار ، فإن لغضبهم أسبابا ، أى أن الطفل لايعاقب على سلوك سلكه وهو غاضب لأن هناك أسبابا لهذا السلوك ... معنى ذلك أن إجراءات التشدد فى معاملة الأطفال بدأت تخف شيئا ما ، وتدريجيا بدأ التشدد يقل شيئا فشيئا حتى ترك الحبل على الغارب للأطفال بدعوى حاجتهم إلى التعبير عن انفعالاتهم وعن ذواتهم ، وأن الوقوف ضدهم فى هذا المجال أمر قد يسبب لهم متاعب نفسية قد تستمر مع مراحل النمو التالية . وإذا حدث هذا فهو أمر يسبب الانزعاج عند الكبار .

ولاترضى التربية التقدمية التى بدأت تنتشر فى أمريكا كبتا للأطفال أو حبسا لحرياتهم أو ضغوطا على سلوكهم . وقد تناسى أصحاب التربية التقدمية أن للأطفال أيضا حاجة إلى الضبط ، أى أن تكون هناك سلطة تراقب وتضبط تصرفاتهم ، إذ مع الحرية يجب أن يكون هناك نظام . وربما فكر التقدميون بهذا المعنى ولكن الاندفاع الأمريكى الهائل وراء هذا الاتجاه التقدمى الجديد جعل كثيرين يتسابقون فى إطلاق الحريات للأطفال ، حتى صارت هناك فوضى أثرت فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، بل وفى التعليم الجامعى أيضا على المستويات التحصيلية والتصرفات الأخلاقية .

خامسا تتبلور كل الأفكار السابقة فى فكرة واحدة ، كانت هى صاحبة الكلمة العليا فى تربية الأطفال وقد مضى من القرن أكثر من ثلثه ... وهى أن الطفل ينمو ككل ... هو وحده ... هو كائن حى حر نام ، له جسم ، وعقل ، ومشاعر . وله أسرة وأصدقاء ، وله اهتمامات وميول ورغبات . وعلى المدرسة فى رياض الأطفال أن تتفهم كل هذا ، وأن تعرف على وجه اليقين أن لكل طفل فرديته الخاصة به .

* * *

والظاهر أن هذه الفردية تضخمت أكثر من اللازم عندما فهمت بعض آراء جون ديوى والخاصة بالنشاط فهما ربما ما كان يعجبه هو ... الذى قال ... إن الأمر المهم هو أن يعرف الطفل كيف يحصل على المعرفة ... والتربية حياة .. والتربية نمو . وتواترت الأنباء عبر القارات والمحيطات مبشرة بهذه التربية التقدمية ومناهضة للتربية التقليدية أو الكلاسيكية ، فكان اهتمام التربية التقليدية بالمعرفة والتحصيل ، واهتمام التربية التقدمية بالنشاط والتعبير عن النفس . وتمضى السنون متوالية والتقدمية متربعة على عرش التربية ، حتى جاء وقت ضج فيه أساتذة الجامعات من ضعف مستوى الطلاب فى المواد الدراسية ، خاصة فى القراءة والكتابة . وكيل اللوم على المدارس

الثانوية إذ تمنح الشهادات أو بعض الخريجين ضعاف جدا ، حيث إن منهج التعليم فى تلك المدارس الثانوية كان يتضمن مواد اختيارية وأخرى إجبارية . وكان يمكن للطالب أن يتخير السهل اليسير ويكفى نفسه مئونه ومشقة التعرض للصعب العسير من المواد .

لكن مدرسى المدارس الثانوية رفضوا اتهام الجامعات قائلين ما ذنبهم ، وقد أتى التلاميذ ضعفاء من المدارس الابتدائية (الأولية) . وكان العمل فى هذه المدارس الأخيرة مصطبغا بإمكانات مادية كثيرة ومدارس جميلة ، ووسائل تعليمية كثيرة غزيرة ، وأثاث طيب مريح ، وسيارة أتوبيس صفراء تحضر التلاميذ للمدرسة ثم تعيدهم من حيث أتوا ، ويقدم للتلاميذ اللبن وعصائر الفواكه ... وكل شىء جميل وهادىء على ساحة التعليم الأولى ... فى الظاهر . أما ما كان يدور فى الباطن فقد أزعج بعض العاقلين فى المجتمع الأمريكى ، ولكن دعواهم ضاعت وسط زحام وضجيج طبول التربية التقدمية التى رفعت أعلامها عالية دون منافس قوى .

وكانت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التى بدأت تدق المسامير فى نعش هذه التربية عندما أطلق الاتحاد السوفيتى قمره الصناعى سبوتنيك عام ١٩٥٧ . وتلقت التربية التقدمية الطعنات متتالية فى غير هوادة ، وجن جنون كثيرين من المسئولين لهذا التفوق العلمى الروسى وما ينطوى عليه من نتائج عسكرية ، تهدد ما يراه الأمريكيون معقل الديمقراطية . وخرجت الصحف والكتب منددة فى سخرية بفكرة النشاط والتعبير عن الذات ، والتقليل من أهمية تحصيل المعرفة ، وما إلى ذلك من الاتهامات التى ألقيت جزافا ضد التربية التقدمية ، وقد تكون بريئة من بعضها .

وتبلور الفكر الأمريكى فى مجموعة اتجاهات ، منها :

١- ضرورة الإسراع فى تغيير نظام التعليم ومناهجه وأساليبه .

٢- زيادة الاهتمام بالعلوم الطبيعية ومنها الرياضيات .

٣- اتجاه نحو الاهتمام بأساليب وبرامج إعداد المدرسين لكافة مراحل التعليم ، خاصة لمراحل التعليم الأولى وما قبله .

٤- العمل على إيجاد طرق ووسائل تسرع فى تحصيل المعرفة ، ومنها أن يبدأ التعليم فى سن مبكر ، أى فى فترة ما قبل سن السادسة ، وهى السن التى يلتحق فيها الأطفال بالصف الأول الأولى (الابتدائى) .

٥- اتجاه نحو الاهتمام بمرحلة التعليم قبل المدرسة الابتدائية .

* * *

بعد دقائق قليلة ، تبعت دقة الساعة التاسعة مساء فى واشنجتن العاصمة ، اتجهت عدسات كاميرات التليفزيون إلى وجه الرئيس الأمريكى مساء الرابع من يناير سنة ١٩٦٥ . وعندما اعتلى المنصة ليخاطب ممثلى الشعب فى مجلسهم كانت عشرات الميكروفونات متلهفة لما سيقول . وجلس الملايين من الأمريكيين وغيرهم انتظارا لحدث تاريخى يحدث للمرة الثانية فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يوجه رئيسها أمره لممثلى الشعب والشعب فى آن واحد .. وفى الليل ... إذن فالأمر خطير الأهمية. قال فى تؤدة وتمهل ضاغطا على مخارج الحروف ... «اقترح أن نبدأ برنامجا فى التربية ليتأكد حصول كل طفل أمريكى على أقصى درجات نموه العقلى والمهارى ... يجب أن يحصل كل طفل على أفضل تربية يمكن أن تقدمها أمتنا له ...فإلى جانب البرامج الموجودة حالية فأنا أوصى ببرنامج للمدارس والطلاب ... ولمرحلة ما قبل المدرسة سوف نساعد الأطفال المعوزين ليدركوا بهجة التعلم ...» .

ولم يسبق لتربية الطفل قبل المدرسة أن نالت هذا القدر البارز من الاهتمام على هذا الصعيد السياسى الأعلى . فبعد ثمانية أيام أرسل الرئيس جونسون خطابا إلى الكونجرس شرح فيه خطته نحو تربية الأطفال من البيئات المتواضعة اقتصاديا ، ومعبرا عن إيمانه الشديد بأهمية التربية فى سنى ما قبل المدرسة ، وتأثيراتها فى حياة كل الأفراد ... واستطرد فى خطابه .. «يجب أن تبدأ التربية مع الأطفال فى صغر العمر . فالأطفال سواء فى البيئات الحضرية أو الريفية الفقيرة غالبا ما يحكم عليهم بالفشل قبل أن يلتحقوا بالمدرسة الابتدائية (الأولية) ... وسوف يبدأ العمل الجاد فى الصيف القادم ببرنامج لتهيئة الأطفال من البيئات الاقتصادية الفقيرة حتى يلتحقوا فى الخريف بالصف الأول» .

وقد اطلق على هذا البرنامج اسم (Head Start) وقد يعنى بالعربية (البداية المنطلقة) . وهكذا بناء على أمر الرئيس بدىء هذا البرنامج فى صيف عام ١٩٦٥ ، وكانت الأقمار السوفيتية تتكاثر فى الفضاء ، ولحقتها أقمار أمريكية .

وقد أثار ابتداء هذا البرنامج حماس كثيرين من علماء التربية والنفس والاجتماع وغيرهم ، فزاروا الأماكن التى تجمع فيها الأطفال فى محاولات لتطوير البرامج التى تعد لهم كتربية سابقة للمدرسة (وعلينا ألا ننسى أن هؤلاء أطفال من بيئات فقيرة ، إذ كانت هناك مؤسسات أخرى لأبناء القادرين) . وكان هذا التكالب والاندفاع نحو برامج (هيدستارت) هادفا إلى مد فترته الزمنية من أسابيع إلى سنة كاملة أو تزيد .

واختلفت الآراء العلمية ، ونظمت دراسات وبحوث فى محاولات لوضع برامج لأطفال تلك البيئات فى ذلك السن ، آخذين فى الاعتبار الظروف الاقتصادية ، وأحوال الأسر ، والخلفيات الاجتماعية التى يأتى منها هؤلاء الأطفال الذين يراد لهم أن يلتحقوا بالصف الأول فيما بعد ، وقد أعدوا واستعدوا للدراسة فيه . ولكن التساؤل

يبرز : من كان يشرف على هؤلاء الأطفال ؟ إذ وصل الأمر إلى أن بعض الطالبات فى التعليم الثانوى كن يشرفن على الأطفال فى وقت فراغهن ويؤجرن بحفنة قليلة من الدولارات على الساعات التى يتواجدن فيها معهم . كما كانت هناك متطوعات إما بدافع الشفقة والرحمة الإنسانية ، أو الحب الأكيد للطفولة ، أو لأنهن لايجدن شيئا يعملنه ولديهن وقت فراغ ممل . وأيا كانت الدوافع فالواضح أنهن بالإجماع تقريبا لم يكن على وعى واضح بأصول التعامل التربوى والنفسى مع هؤلاء الأطفال . ومشروع (هيدستارت) تقف أمامه علامات استفهام غير قليلة .

يرى المؤلفان أن نجاح أى برنامج أو تنفيذ أى مقرر فى منهج ما يعتمد بالدرجة الأولى على من يقوم على تنفيذه ، ومدى إعداده التربوى والنفسى . ومع هذه العلامات الاستفهامية التى تتساءل فى مكر علمى ، فلبرنامج (هيدستارت) فضل لاينسى ، إذ دفع أعدادا غير قليلة من المتخصصين ، سالت لهم ملايين الدولارات سهلة، فأعملوا التفكير والدراسة والبحث وخرجوا بمجموعة أفكار واتجاهات (وربما نظريات) عن تعليم الأطفال فى مرحلة ما قبل الدراسة ، وبالذات عن الأطفال الذين يعيشون فى بيئات مستواها الاقتصادى متواضع ، ومستوى تعليم أولياء الأمور منخفض ، وتعانى أماكن السكن من كثير من السيئات التى لايمكن أن توجد فى منازل أسر ذات مستوى اقتصادى متوسط . وكان هؤلاء الأطفال يجدون الطريق سهلا إلى شوارع وأزقة فيها الفساد الصحى والأخلاقى مسيطر دون رادع أو منقذ لهم . وقد شعر المسئولون الأمريكيون بما يمكن أن يئول إليه حال هؤلاء الأطفال عندما يكبرون ، والشواهد كثيرة من الراشدين الذين تخرجوا فى هذه البيئات غير الصالحة . إذن هو دافع إنسانى ودافع نفعى يصبو إليه ذلك المجتمع الأمريكى .

على أن واقع الأمر يشير إلى مشكلة أخرى كتب عنها أمريكيون وغير أمريكيين ، مشكلة أثارتها وأشعلت نيرانها طبيعة الحياة فى مدن أمريكا الصغيرة والكبيرة على السواء ونحن لا نتكلم هنا عن الحياة فى الريف الأمريكى الذى يضم

قرى صغيرة محدودة العدد من السكان إذا قورنت بمدن صغيرة أو كبيرة ، فقد سلب لب الصغار ذلك الساحر العجيب الذى يستدعيه الطفل بمجرد الضغط على زرار فى صندوق تحت تصرفه فى البيت . وكان إخراج البرامج التليفزيونية رائعا شد انتباه الصغار (وأيضا الكبار) فاستسلموا له دون مقاومة . جلسوا وعيونهم ترى وآذانهم تسمع وعقولهم تعى ، وانفعالاتهم تتابع الأحداث فى شوق لذيذ ، بينما هم مخدرون لهذا الذى يتدفق إليهم ، ويكون عندهم قيما واتجاهات غير مقبولة فى بعض الأحايين، وتكونت لديهم صور عن معانى البطولة منها التفوق الجسمى ، أو كيف أن الفأر ميكى ماوس بدهاء ومكر وتدبير (المقالب) يستطيع وهو صغير الجسم أن يوقع القطة وينتصر عليها .

ويخرج الأطفال إلى رفاقهم فى الشارع أو أرض واسعة (إن وجدت) يلعبون فيها ، ويتعلمون بعضهم من البعض الآخر ألفاظا لايعرف معناها كثير من أفراد الشعب الأمريكى ، ويكونون عصابات أو (شلل) صغيرة تحاول - ولو على سبيل اللعب - أن تقلد عصابات الأشرار الكبار .

بتربية هذا الساحر العجيب ورفاق الشارع المريب دخل الأطفال المدارس الأولية (الابتدائية) . ولكى نحكم حكما تقريبيا على أثر هذين العاملين ، وهما ، التليفزيون وبيئة الرفاق فى الشارع نقول : إن الطفل يمضى فيهما أكثر مما يمضى فى بيئة أعدت خصيصا لحسن تربيته ، فهو يجلس أمام التليفزيون حوالى ٢٢ ساعة فى الأسبوع ، ويمضى مع الرفاق أكثر قليلا من هذا الوقت ، مما يوصل عدد تلك الساعات إلى يومين كاملين أسبوعيا ، يقع فيهما الطفل نهبا وصريعا لمؤثرات لا شك أن لها آثارا سيئة على أخلاقه . إن بعض ما يسمعه من رفاقه من أخبار أو حوادث أو حكايات هى سيئة السمعة ومشبوهة خلقيا ، وبعض المعانى التى يكتسبها من التليفزيون هى أيضا ليست على قدر مقبول من المسئولية التربوية .

وقديما قال الفيلسوف الاغريقى المعروف أفلاطون ما معناه ... هل نسمح للأطفال دون عناية لأن يستمعوا لأى شخص ولأية قصة ؟ انهم سيتلقون أخبارا وأحاديث لها معان هى أبعد ما تكون عما نريد أطفالنا أن ينشأوا عليه ، وكالسموم الخطرة على الجسم ، فكذلك هذه المعانى خطرة على عقول الأطفال .. وهذا ضد ما أن ينشأ عليه الأطفال وهم فى طريقهم إلى أن يصبحوا كبارا .

ولم يكن المربون والنفسانيون والاجتماعيون الأمريكيون غافلين عن هذا الخطر الذى يهدد مستقبل الأجيال الصاعدة، فى وقت كانت قوة الاتحاد السوفيتى فيه تتزايد، واليابان تهب عملاقة بعد أن نفضت عنها غبار الهزيمة ، وأعادت المانيا وأوروبا الغربية البناء ... وأصبحت المجتمعات المتقدمة تسابق الزمن فى سعيها إلى مزيد من التقدم.

وربما انتهت أسطورة التربية التقدمية ، وترك علماء النفس الأمريكيون الفئران والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات تهدأ وتأمن فلا تساق إلى معامل علم النفس بالكثرة التى عهدتها أبحاث ذلك العلم . وصار ثمة حرص واضح لاهتمام متطور نحو تربية حقيقية للمتعلمين فى مختلف المعاهد ، ويهمنا هنا ماذا حدث ويحدث فى مؤسسات تعليم الأطفال قبل التحاقهم بالصف الأول .

* * *

دون الخوض فى تفاصيل لاتعنينا فى موضوع هذا الكتاب .. فإن مؤلفات عديدة أوضحت الارتفاع السريع والمستمر فى أعداد الأطفال الذين يلتحقون بمؤسسات التربية قبل المدرسة . ومن أمثلة هذه المؤسسات :

١- مراكز الرعاية النهارية

وهى مراكز تستقبل الأطفال أثناء اليوم ، إما لأن الوالدين يريدان إرسال الطفل إلى بيئة تربوية آمنا بأهميتها ، أو لأن الأم تعمل وتحب أن يوجد طفلها فى مكان آمن

وقديما قال الفيلسوف الاغريقى المعروف أفلاطون ما معناه ... هل نسمح للأطفال دون عناية لأن يستمعوا لأى شخص ولأية قصة ؟ انهم سيتلقون أخبارا وأحاديث لها معان هى أبعد ما تكون عما نريد أطفالنا أن ينشأوا عليه ، وكالسموم الخطرة على الجسم ، فكذلك هذه المعانى خطرة على عقول الأطفال .. وهذا ضد ما نود أن ينشأ عليه الأطفال وهم فى طريقهم إلى أن يصبحوا كبارا .

ولم يكن المربون والنفسانيون والاجتماعيون الأمريكيون غافلين عن هذا الخطر الذى يهدد مستقبل الأجيال الصاعدة، فى وقت كانت قوة الاتحاد السوفيتى فيه تتزايد، واليابان تهب عملاقة بعد أن نفضت عنها غبار الهزيمة ، وأعادت المانيا وأوروبا الغربية البناء ... وأصبحت المجتمعات المتقدمة تسابق الزمن فى سعيها إلى مزيد من التقدم.

وربما انتهت أسطورة التربية التقدمية ، وترك علماء النفس الأمريكيون الفئران والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات تهدأ وتأمن فلا تساق إلى معامل علم النفس بالكثرة التى عهدتها أبحاث ذلك العلم . وصار ثمة حرص واضح لاهتمام متطور نحو تربية حقيقية للمتعلمين فى مختلف المعاهد ، ويهمنا هنا ماذا حدث ويحدث فى مؤسسات تعليم الأطفال قبل التحاقهم بالصف الأول .

* * *

دون الخوض فى تفاصيل لاتعنينا فى موضوع هذا الكتاب .. فإن مؤلفات عديدة أوضحت الارتفاع السريع والمستمر فى أعداد الأطفال الذين يلتحقون بمؤسسات التربية قبل المدرسة . ومن أمثلة هذه المؤسسات :

١- مراكز الرعاية النهارية

وهى مراكز تستقبل الأطفال أثناء اليوم ، إما لأن الوالدين يريدان إرسال الطفل إلى بيئة تربوية آمنا بأهميتها ، أو لأن الأم تعمل وتحب أن يوجد طفلها فى مكان آمن

تربوى . وقد أنشأت بعض المصانع الكبيرة مثل هذه المراكز ضمن أسوار المصنع ، إذ اثبتت دراسات معنية أن الأمهات يكن مطمئنات فى مثل هذا التنظيم ، كما أن انتاجهن يتحسن .

٢- برامج هيدستارت والبرامج التكميلية أو التعويضية

وهى قاصرة على الأطفال من سن ٤ إلى ٦ ، وبعضها يفتح للأطفال خلال فصل الصيف فقط والبعض الآخر يمتد طوال العام . ومعظم هذه البرامج يتعامل مع أطفال البيئات التى تعانى قصورا ونقصا اقتصاديا واجتماعيا . وتقدم معظم هذه المؤسسات وجبة غذائية رئيسية ، ويشرف الآن على هذه البرامج مشرفات مدربات ، ويتملكن دراسة تربوية ونفسية تتمشى مع تعاملهن مع الأطفال . والملاحظ أن تطورا جذريا حدث فى اختيار من يقمن بمهمة تربية الأطفال فى هذا المشروع ، الذى بدأ أولا بمتطوعات أو طالبات ليست لديهن أية دراية تربوية أو نفسية .

٣- رياض الأطفال

ويلتحقن بها الأطفال فى عمرى الرابعة والخامسة بحيث تنتهى التربية بالنسبة لهم ، وهم على أبواب دخول الصف الأول فى المدارس الابتدائية ، وترأس هذه الرياض فى إشراف فعال متخصصات فى التربية فى هذه المرحلة ، ومهمتهن الأساسية إعداد وتهيئة الأطفال للالتحاق بالصف الأول . بعض هذه الرياض عامة أى تنفق عليها السلطات الحكومية ، وهى بهذا مجانية ويلتحق بها أى طفل فى هذا السن . وبعضها يتبع هيئات خاصة قد تتطلب فى أغلب الأحيان مصروفات لقاء قبول الأطفال بها .

٤- مدارس تجريبية ملحقة بكليات التربية والجامعات وتنقسم إلى نوعين

نوع يقبل الأطفال قبل الثالثة ، وآخر يقبل الأطفال قبل المدرسة الابتدائية

مباشرة . وقد أدمج النوعان حديثا فى بعض الكليات والجامعات ، فامتدت السنوات التى يمضيها الأطفال فى تلك المؤسسات بحيث يمكن أن يلتحق طفل قبل الثالثة مستمرا إلى السادسة ، ويلتحق بهذه المؤسسات أبناء أعضاء هيئة التدريس أو العاملين بالكليات والجامعات ، راضين أن يكون أطفالهم خاضعين لمحاولات تجريبية ذات طابع علمى تحت إشراف الأساتذة الجامعيين المتخصصين .

٥- دور الحضانة

وتقبل الأطفال عادة ابتداء من سن الثانية والنصف، وتمتد إلى سن الخامسة، وهى غالبا مملوكة لهيئات خاصة أو تعاونيات تجمع مجموعات من أولياء الأمور ، قرروا فتح هذه الدور ليلتحق بها أطفالهم . تشرف على كل دار حضانة مشرفة مختصة فى تربية الأطفال فى تلك المرحلة، وغالبا تشترك الأمهات فى المعاونة فى الإشراف على الأطفال، الأمر الذى لقى حماسا ملحوظا مما جعل عدد الأمهات المشتركات يزداد عاما بعد عام ، حيث إن هناك تبادلا للخبرات ومزيدا من التعاون بين البيئتين المدرسية والمنزلية .

٦- تعاونيات أولياء الأمور

وهذه دور اتفق بعض أولياء الأمور على افتتاحها لمصلحة أطفالهم الذين تتاح لهم فرص التواجد المثمر فى بيئات تربوية تحت إشراف منتقى تقوم به متخصصات فى تربية الأطفال . ومن الطريف أن بعض هؤلاء المتخصصات والمتخصصين هم أنفسهم أولياء أمور الأطفال فى هذه المؤسسات . ومن الجميل أنه عندما يترك أطفالهم هذا المجتمع التربوى للالتحاق بالمدارس الابتدائية يظلون فى أداء مهمتهم النبيلة ، مساعدين بذلك أطفال جيرانهم إذا لم تتح الفرص لأولياء أمور جدد لهم أطفال يلتحقون بهذه البيئات التربوية . بل إن إسهام بعض أولياء الأمور يستمر ويستمر

٧- مدارس اللعب Play Schools

ويلتحق بها الأطفال من سن الثانية إلى السادسة، وهى مملوكة لأفراد أو كنائس أو هيئات محلية ، تبدى الرغبة فى استضافة الأطفال فى مجموعات صغيرة حيث تهيئ لهم بيئة تربوية سليمة . بل إن فى بعض الأحيان تتقدم سيدة على قدر من الثقافة والتعليم ، وتبدى مثل هذه الرغبة التى تستجاب بعد التأكد من صلاحية الجو التربوى الذى تستطيع هذه السيدة أن تهيئه للأطفال ، وتمنح ترخيصا رسميا بصلاحيتها للقيام بهذا العمل . ويشترط وجود مكان متسع نسبيا يسمح للأطفال باللعب ، وتكاد تنحصر مهمة المشرفة فى ملاحظتهم ورعايتهم أثناء لعبهم .

٨- لم يكن غريبا من دولة كالولايات المتحدة الأمريكية أن تولى اهتماما كبيرا بالمعوقين جسميا ، فقد أعدت مؤسسات خاصة لفاقدى السمع ، وفاقدى النطق ، وفاقدى البصر ، والمعاقين من الشلل ... إلخ ، وكذلك مؤسسات خاصة للمتخلفين عقليا . وجدير بالذكر هنا أن اتجاها حديثا صار يؤخذ به فى الولايات المتحدة الأمريكية وهو إلحاق ذوى العاهات والتخلف العقلى بمدارس التعليم العام وعدم عزلهم فى دور خاصة ، بعد أن اقتنع نفسانيون وتربويون بأن خيرا للأطفال المعاقين أن يوجدوا مع غيرهم من الأسوياء فى الجوانب الانفعالية والتحصيلية على السواء .

وسوف نقدم الآن عرضا سريعا موجزا لبعض البرامج التى تقدم للأطفال والخبرات التى يمرون فيها ، أثناء وجودهم فى مؤسسات تربية الطفل قبل المدرسة ، علما بأن هذه البرامج والمشروعات والنماذج نبعت أساسا من مشروع (هيدستارت) ، ولكن الدارس المختص لهذه البرامج والنماذج يجد أنها متأثرة فعلا بما يدور فى أوربا الغربية التى استوعبت آراء المفكرين الأوروبيين . والبارزون فى هذا المضمار هم : فروبل ومنتسورى وبياجيه ومن قبلهم إلى حد بسيط بستالوتزى وسوف نتناول فى الباب الثانى من هذا

الكتاب عرضا لأهم آراء كل من هؤلاء . والملاحظ على وجه الخصوص أن آراء منتسورى انتشرت فى بداية هذا القرن فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى هاجمتها التربية التقدمية ، ثم عادت إلى الظهور بقوة وتأثير واضحين عندما انحسرت هذه التربية التقدمية .

كما أن هذه البرامج والمشروعات والنماذج اختلفت من بيئة إلى أخرى داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا أمر طبيعى لعدم وجود مركزية التعليم فى تلك الدولة التى يكتفى فيها بهيئة مركزية فى العاصمة ، تضع السياسة العامة والخطوط العريضة للتربية ، وتتولى كل ولاية وضع مناهجها وكتبها وأنظمتها الداخلية . فمثلا فى تعليم القراءة فى الصف الأول .. هناك مجموعة طرق مختلفة بعضها عن البعض الآخر وتنفذ فى مناطق مختلفة ، إذ إن الأمر المهم هنا أن الطفل الأمريكى يتعلم كيف يقرأ. ومن محاسن هذه اللامركزية هذه الحرية فى تخطيط المناهج ، ويشترك فى هذا العمل المدرسون القائمون فعلا بالتدريس فى الصفوف، والموجهون ، وأساتذة التربية وعلم النفس التربوى ، بل أولياء الأمور أيضا ، وممثلون من قطاعات المجتمع الصناعى والزراعى والتجارى . القصد هنا أن تشتق المناهج من حاجات الأطفال والمجتمع ، كما أن اشتراك المدرسين فى عملية التخطيط هذه يحملهم مسئولية كبيرة فى تنفيذ هذه المناهج .

أما عن النماذج والمشروعات والبرامج التى تنفذ حاليا فيما يختص بتعليم الطفل قبل المدرسة فهى كثيرة ، سوف نتخير بعضا منها فيما يلى [1] :

أولا : نموذج تكسون للتربية المبكرة The Tucson Early Education Model وضع بإشراف كلية التربية ، بمدينة تكسون بولاية أريزونا .

(1) Robert D. Hess and Doreen J. Craft, Teachers of Young Children, Houghton Mifflin Co., Boston, U.S.A. 1872, pp. 150-59.

المبررات والأهداف

صمم هذا البرنامج أساسا للأطفال الأمريكيين من أصل مكسيكى ، وأسس على مبدأ أن الأطفال يذهبون إلى المدارس محملين بمجموعات من الاتجاهات والمهارات، كونوها قبل التحاقهم بالدراسة ، ويجب أن يبدأ البرنامج بما لدى الأطفال فعلا . وأن يكون الاهتمام الأساسى بالمهارات اللغوية والمعرفية ، والاتجاه الإيجابى نحو المدرسة ، والفن النابع من المجتمع أى (يتدرب الأطفال على مهارات إنتاج أعمال فنية مستمدة من البيئة) .

الإجراءات

من صفات هذا النموذج اعتماده على العلاقة المباشرة بين المرشدة وكل طفل على حدة ، مستخدما أساليب التشجيع والمدح والتوجيه التى يتطلبها الموقف . وتقدم للأطفال نماذج فى مناسبات شتى يقومون بتقليدها فى السلوك والتصرفات . فمثلا تكون المرشدة نفسها نموذجا يحتذى ، أو يعرض فيلم قصير يحكى قصة لها معنى أو يقدم موقفا أخلاقيا ... وتعزز مواقف الخبرة التى يعرض لها الأطفال بخروجهم إلى جولات وزيارات خارج المدرسة .

وتهتم المرشدات باستخدام ما لدى الأطفال من نتائج خبرات سابقة ، ويعملن على حسن استغلالها والإفادة منها .

ولا يطلب من الطفل هنا أن يتعلم شيئا معينا ، ولكنه يترك لنفسه ولمثيرات البيئة المعدة والمهيئة التى تؤثر فيه ويتفاعل معها ، ويخرج من هذا الموقف وقد كسب بعض المعرفة وربما مهارة أو أكثر . كما يبدأ تكوين سلوك ما متأثرا فى ذلك بمن يتعامل معهم وهم الأطفال والراشدون والمرشدة . والمتوقع أن هذا الإجراء الذى يترك فيه الطفل للتفاعل مع غيره فى مواقف مختلفة سواء بشر أو غيرهم ، يؤدى إلى حب المدرسة . وهذا ما يسعى إليه هذا النموذج .

ثانيا : نموذج تحليل السلوك Behavior Analysis Model

أشرفت عليه جامعة كنساس .

يوجه هذا البرنامج أو النموذج للأطفال من البيئات المتواضعة اقتصاديا . والمعتاد أن الحكم على مدى نجاح أو فشل هؤلاء الأطفال فى المدرسة الابتدائية تتحكم فيه معايير ، وضعت لتلاميذ من الطبقة الوسطى اقتصاديا ، والذين يتمتعون بمثيرات أفضل ، وتشجيع مادى يدفعهم إلى مزيد من النجاح . كما أنهم يكتسبون مهارات من وجودهم فى بيئة تمنحهم فرص تكوين هذه المهارات . إذن فهناك نوعان من الأطفال : أطفال فقراء وهم يعانون الحرمان ، وأطفال مستريحون اقتصاديا ويتمتعون بالمزايا التى تؤثر على نجاحهم فى المدرسة الابتدائية وما يليها .

إذن فالمثيرات والحوافز التى يمكن أن تدفع الأطفال الفقراء لكى ينجحوا فى المدرسة فيما بعد ، تختلف فى نوعها وأسلوب تقديمها عن مثيرات تقدم لأطفال من الطبقة الوسطى وتحفزهم للنجاح . والنجاح فى المدرسة الابتدائية يتطلب مهارات معرفية واجتماعية معينة . ويعمل هذا البرنامج على تحليل وتصنيف هذه المهارت ، ثم تزويد الأطفال بالمثيرات وأنواع التعزيز والتشجيع التى تتلاءم مع خلفيتهم لتكوين هذه المهارات ، والتى تجعلهم قادرين - كأطفال الطبقة المتوسطة - على النجاح عندما يدخلون المدرسة الابتدائية .

الإجراءات

تقوم هذه الإجراءات أساسا على أن يمنح الأطفال مكافأة بسيطة عبارة عن قطع صغيرة من البلاستيك ذات ألوان مختلفة لكل لون قيمة معينة ، وذلك مقابل ما يقومون به من أعمال يكلفون بها . فعندما ينجح الطفل فى أداء عمل ما كالنجاح فى حل مسألة عددية (على مستوى بسيط جدا) مثلا أو بناء شكل ما ، أو إعادة ترتيب

مكان كما كان بالحجرة ... إلخ ، فإنه يمنح ما يوازى قيمة هذا النجاح قطعا من البلاستيك الملون ، ويجمع كل طفل ما ناله من هذه القطع ، ويمكنه أن يستبدل بها أشياء يحبها مثل مشاهدته فيلما سينمائيا ، أو استخداماته للأرجوحة ، أو سماعه أغنية مسجلة ، أو حتى استمتاعه بقسط من الراحة .

والملاحظ أن المرشدة تراقب كل طفل لإثارة من يحتاج إلى إثارة وتشجيع البعض ، وربما توجيه البعض الآخر فى محاولة من جانبها للاهتمام بكل طفل وحفزه للحصول على مزيد من تلك القطع من البلاستيك .

ثالثا : نموذج الاستجابة The Responsive Model

أشرف على هذا البرنامج أحد أساتذة معهد الغرب الأقصى للبحوث والتنمية فى بيركلى - كاليفورنيا .

والمقصود بالاستجابة هنا أن يستجيب الكبار للصغار ، لا أن يستجيب الصغار للكبار .

المبررات والأهداف

الهدف الرئيسى من هذا البرنامج هو بداية عملية تربوية ستفسر عن تكوين راشدين لديهم القدرة على حل المشكلات الفريدة والثقة بالنفس لمواجهة هذه المشكلات.

ويدعم فكرة هذا النموذج ، أى استجابة الكبار للصغار ، ثلاثة أسس هى :

(أ) أن الأطفال يتعلمون بدرجات متفاوتة .

(ب) أن الأطفال يتعلمون بطرق مختلفة .

(جـ) أن الأطفال إذا اهتموا وتشوقوا لما يتعلمونه فإن تعلمهم يكون أفضل .

ويركز هذا البرنامج على عدة مسلمات جاءت نتيجة بحوث سابقة ... حل المشكلات هو جوهر التعلم ... يتذكر الطفل بدرجة أفضل ما يكتشفه أو يتوصل إليه بنفسه . ويؤكد هذا البرنامج مقولة أن تتعلم كيف تتعلم ، أفضل من أن تتعلم محتوى مادة أو مجموعة معلومات . ويؤسس هذا البرنامج على دوافع الطفل الداخلية وتنمية الذات عند كل طفل .

الإجراءات

يصمم الفصل ويجهز بعديد من المواد والأجهزة حتى تتاح فرص كثيرة للطفل لكى يستكشف ويجرب ، مما يؤدى به إلى تفهم ما حوله ومحاولة إيجاد العلاقات المناسبة بين الأسباب والنتائج . والمواد والأجهزة مصممة بطريقة تسمح للطفل أن يعرف مباشرة نتيجة ما يعمل . والمفروض أن شعور الطفل برضائه عن نفسه يتم من قيامه بأداء العمل نفسه بغض النظر عن النتائج .

رابعا : النموذج ذو الطابع المعرفى Cognitively Oriented

أشرف على هذا البرنامج مؤسسة البحوث التربوية بابسلانتى بولاية متشجان .

المبررات والأهداف :

يصمم هذا البرنامج على أساس الاعتقاد بأن عملية التربية ذاتها هى أهم عوامل النجاح فى التخطيط التربوى ، وليس المنهج المستخدم مهما كان هذا المنهج . وتعتمد هذه العملية التربوية على المرشدة فى تخطيط وتنفيذ ما تراه مناسبا للأطفال ، وعلى برنامج يعد بعناية لتعليم العادات المعرفية (أى طريقة الحصول على المعرفة) ، والاتجاهات التربوية المرتبطة بسلوك الأطفال فى الاستماع والإنصات وأداء الواجب...إلخ .

الإجراءات

حتى يتم تحقيق الأهداف السابقة فقد صمم البرنامج ، بحيث يضم الأهداف العامة للمنهج والخطوط العريضة والتوجيهات . تترك للمدرسة أو للمرشدة مسئولية ترجمة هذه الأهداف العامة إلى نشاطات يومية يقوم بها الأطفال ، وعليها أن تحدد - فى صورة أهداف اجرائية - السلوك المتوقع من كل طفل بعد قيامه بكل نشاط ، ويتدرج كل نشاط من البسيط إلى المركب ، ومن المحسوس أو الملموس إلى المعقول أو المجرد ، فمثلا إذا تعامل الطفل مع ثلاث حبات من فاكهة فيمكن أن ينتقل من هذا المحسوس إلى رقم (٣) وهو الذى يرمز إلى المحسوس .

خامسا : برنامج إنجل - بيكر .. الاستخدام المنظم للمبادىء السلوكية .

Engelmann-Becker Program "The Systematic Use of Behavioral Principles"

أشرف على البرنامج أساتذة من جامعة أوريجون .

المبررات والأهداف

أدت حياة الأطفال فى البيئات الاقتصادية والاجتماعية المتواضعة إلى فشلهم فى تكوين الاتجاهات والمهارات التى تمكنهم من التقدم بنجاح فى المدارس الابتدائية، التى تستخدم طرائق التدريس الجمعية (أى يقف المدرس أمام مجموعة من الأطفال فى فصل دراسى) . وتعطى الأهمية الأولى فى هذا البرنامج لإكساب الأطفال مهارات فى القراءة والكتابة والحساب . وتؤسس الفكرة هنا على رأى برايتر انجلمان القائل بأن «كل طفل يمكن أن يحصل دراسيا جيدا إذا كان التدريس جيدا ، وتصمم طرق التدريس ، بحيث تؤدى إلى الإسراع فى تعلم الأطفال بدرجة تفوق الطرق التقليدية المعهودة .

الإجراءات

يقسم الأطفال إلى مجموعات (من خمسة إلى عشرة) حسب قدرات كل طفل، أى أن كل مجموعة تضم عددا من الأطفال ، ذوى قدرات تكاد تكون متساوية . ويتطلب الموقف التعليمى فى الفصل :

(أ) العمل على أن تزداد استجابات التلاميذ ، أى يقل كلام المرشدة ويزداد كلام وسلوك الأطفال .

(ب) استخدام المرشدة أساليب تشجيع وتعزيز لاستجابات الأطفال بصورة فورية ومستمرة .

(جـ) ترتيب المواد التعليمية بحيث يتدرج التعلم من البسيط إلى المركب ، وبحيث يكون هناك تسلسل منطقى مثل أن يتعلم الطفل الأعداد قبل أن يتعلم الجمع ، وتفهمه للألوان الأساسية قبل إلمامه بالألوان الأخرى .

تستخدم المرشدة قطعا من البسكوت أو الحلوى للتعبير عن رضائها عن سلوك تقبله من الطفل ، على أن يكون هذا تمهيدا لأن يقبل الطفل فيما بعد كلمة إعجاب أو شكر ، تحل محل قطعة الحلوى أو أى شىء مادى . ومن الأساليب التى تتبع فى هذا البرنامج أعمال يشترك فيها الأطفال كالتصفيق بالأيدى ، أو إصدار أصوات معينة سواء بالاستحسان أو بالاستهجان للتعبير عن ردود أفعالهم تجاه موقف معين .

ويتعلم الأطفال أيضا عن طريق تكرار سلوك معين وبسرعة معينة كالاستماع إلى أمر ثم تنفيذه ، ويتكرر هذا مرات عديدة حتى يتعود الأطفال أداء سلوك معين فى موقف معين ، مثل ما يجب عليهم عمله عند نشوب حريق .

سادسا : المدرسة التى يشرف عليها المجتمع المحلى

The Community Controlled School

ينتشر هذا البرنامج انتشارا واسعا فى ربوع الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلقى تأييدا واسع النطاق ، ولذلك لم نتخير أى مجتمع محلى بالذات .

المبررات والأهداف

صممت فلسفة وأهداف المدرسة الابتدائية الأمريكية بحيث تتفق مع معايير الطبقة الوسطى ، ولذلك فالنجاح مشكوك فيه بالنسبة للأطفال الذين يلتحقون بها من بيئات أدنى من تلك الطبقة . ولهذا فلا يمكن أن يعزى فشل أطفال تلك البيئات إلى عيوب فيهم ، ويكمن الحل فى توطيد الصلة بين المدرسة وتلك البيئات ، حتى تتمكن المدرسة من أن تكون أكثر تجاوبا مع حاجات هؤلاء الأطفال وأسرهم .

ويتطلب هذا الأخذ فى الاعتبار برأى أولياء الأمور فيما يتصورون أنه صالح لأطفالهم. وبهذا يسقط الجدار الفاصل بين المدرسة والبيئة المحلية وبالذات بين المدرسة والبيت . ويؤدى هذا إلى شعور الطفل بشىء من الاطمئنان ، حيث توجد خطوط اتصالات بين ما يتعلمه فى المدرسة وما يجده فى البيت ، فلا يقع نهبا لمتناقضات سببها إحساسه أنه لايوجد اتفاق بين ما يحدث فى البيت وما يتعلمه فى المدرسة ، والعكس صحيح .

إن هذا الضبط البيئى يمكنه أن يمنع هذه الإشارات والإيماءات التى تصدر من المدرسات ، معبرة عن مشاعر غير حسنة تجاه ما يحدث فى بيوت الأطفال بصورة يتصورون أنها يمكن أن تمر ، ولكن أحاسيس الأطفال لاتسمح لها بهذا المرور ، مما يؤثر فى نفسياتهم .

إن أكثر ما يهم الأطفال هو الإحساس بأن ما يجرى فى المدرسة قد اشترك فى تصميمه وتدبيره آباؤهم وأمهاتهم وجيرانهم ، وهم ينتمون إليهم فى لون بشرتهم وأصلهم ، بل وفى اللغة الدارجة (العامية) التى يتعاملون بها ، إنهم فى المدرسة ليسوا غرباء ، ولكنها كمثل بيتهم .

الإجراءات

يجب أن يشترك المجتمع المحلى فى تخطيط البرامج والسياسات الخاصة بهذه المدارس واتخاذ القرارات لتنفيذها ، على أن يكون ذلك قبل أن تبدأ هذه المدارس عملها . ويتم الإجراء التنفيذى بهذا الصدد بدعوة من يهمهم الأمر للاشتراك ، والإسهام وإبداء الرأى والمشورة لوضع السياسة والتخطيط . وتتكون منهم لجان تشكل ويعهد إلى كل لجنة بمهمة لها أهداف محددة وواضحة ، منها تصميم المناهج الملائمة ، ومنها تحديد المصادر (مثل المؤسسات والمصانع ... إلخ) التى يمكنها أن تسهم فى حسن تنفيذ الخطة الموضوعة ، وربط ما يدور فى المدرسة بالمجتمع المحلى .

ركائز أساسية

يتضح من هذا العرض السريع لبعض نماذج برامج تربية الطفل قبل المدرسة مجموعة مسلمات ، تعتبر ركائز للعملية التربوية فى أهدافها ومحتواها وطرق تنفيذها ، وهى :

١- يجب أن تبدأ تربية الطفل مستندة إلى قدراته ، لأن ما يتعلمه يعتمد إلى درجة كبيرة على ما يعرفه وما لديه من خبرات سابقة . ومن الضرورى معرفة الدرجة التى وصل إليها الطفل فى نموه عند تخطيط برامج لمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية . ولم يكن هذا الاتجاه جديدا ، إذ طالبت منتسورى بمراعاة فردية كل طفل ، وأن يبدأ فى تعليمه ارتكازا على ما اكتسبه سابقا ، كما أنها وصفت

أساليب لتقييم قدرات الأطفال . ويطلق على هذه الفكرة تعبير (تفريد التعليم) أى جعل التعليم يتناسب مع قدرة كل طفل على حدة ، ويتم هذا على خطوات ومراحل تبنى كل خطوة على سابقتها .

٢- يجب أن تتمشى أساليب التدريس مع حاجات كل طفل . فمهما تشابه الأطفال فى خبراتهم كمجموعة ، إلا أن كل طفل هو فرد مستقل بذاته وبشخصيته ... وبقدراته ومهاراته ... باهتماماته وميوله ... بمخاوفه ورغباته ... إلخ . ولكى يكون التعليم فاعلا ومؤثرا .. فيجب أن تراعى الفروق بين الأطفال بكل دقة .

٣- كلما زادت دافعية الطفل ورغبته كان تعلمه أفضل . إن تعرض الطفل لمواقف خبرة متنوعة ومتعددة ، أو إعطاءه الفرصة للمشاركة فى نشاطات متعددة ، أو قيامه بمفرده بنشاط ما ، لايعنى أن الطفل سيتعلم ما نريده أن يتعلمه ، أو أنه راغب فى التعلم على الإطلاق . ويحتاج بعض الأطفال إلى مثيرات تدفعهم إلى العمل تختلف عما تقدمه المرشدة حتى ولو كان هذا ، من وجهة نظرها ، رائعا . ويجب أن تراعى المرشدة أن الأطفال يختلفون فيما تقدمه لهم من وسائل التشجيع والمكافأة بعد قيامهم بعمل ما ، فنجد طفلا ترضيه قطعة حلوى ، بينما طفل آخر يفضل كلمة مدح ، وثالث تعجبه نظرات الاعجاب الصادرة نحوه من غيره من الأطفال .

٤- لكى ينجح الطفل فى مراحل الدراسة المستقبلة ، يجب أن يتعلم منذ مرحلة ما قبل المدرسة مهارات وواجبات ومسئوليات (التلمذة) . وهذا يعنى أن سلوكه المناسب يتضمن : القدرة على الانتباه ، واتباع التعليمات والتوجيهات التى تصدر إليه ، ويفهم ماذا تتوقع المرشدة منه ، وأن يعرف كيف يعمل مع جماعة من زملائه الأطفال ، وأن يأخذ المبادرة فى العمل لا أن ينتظر سلبيا حتى تؤدى الأعمال له . ويتطلب إعداده للتلمذة المستقبلة سلوكا اجتماعيا مهما ، فلا يعمل

على تعطيل غيره أو التدخل فى نشاطهم ، أو إصدار أصوات عالية ، أو السخرية من إنتاج أو أقوال غيره من الأطفال ، وأن يعرف أن رأيه ليس هو الرأى الأوحد ، وأن يتعلم كيف يستمع لغيره ، وألا يقاطع أثناء الحديث .

ومعنى كل هذا أن الطفل لكى ينجح فى المستقبل كمتعلم .. عليه التمكن من بعض المهارات والمعارف .

٥- الأطفال المحرومون اقتصاديا أو اجتماعيا .. أو الذين يعانون ضعفا ماليا أو اجتماعيا يمكنهم أن يكتسبوا مهارات يدوية وعقلية تقدمها لهم المدرسة . إن فشل هؤلاء الأطفال أو حصولهم على درجات أقل من أطفال الطبقة الوسطى سببه خارج عن الطفل ، أى أن طرق التدريس أو المثيرات أو ما يقدم له غير مناسب ، ذلك لأنه أسس على معايير صالحة لأطفال الطبقة الوسطى . إذن أطفال البيئات المتواضعة أبرياء مما وصفوا به من أنهم غير قادرين على التعلم .

عندما أتيحت الفرص للأطفال الذين وضعتهم الظروف فى بيئات اقتصادية واجتماعية متواضعة ، أظهروا قدراتهم على النجاح فى الدراسة كغيرهم من أطفال الطبقة الوسطى . ولم يكن من العدل أو الإنصاف أن يترك الأطفال المحرومون للفشل الذى يتعقبهم فى دراستهم مهددا مستقبلهم ، وبالتالى يكونون أسرا متواضعة اقتصاديا واجتماعيا ، ويكون أطفالهم على مثل أحوالهم . إن إعداد هؤلاء الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة هو إنجاز نبيل ، يحمل فى طياته معانى العدالة والمساواة .

يلحظ الدارس للتربية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية تنوعا واختلافا واضحين سببه الحرية التى تمنحها اللامركزية فى التعليم هناك. فإن تمتع كل ولاية بفرض اختيار وتجريب طرق تدريس مثلا أو محتوى ما يتعلم الطفل ... اعطى الباحثين فى أمور التربية وعلم النفس مجالات كثيرة للدراسة والاقتراحات ، إذ لايوجد نظام موحد كما هو الحال فى بعض الدول الأخرى .

ومع ذلك فإن .. الأراء التى نادى بها مفكرون تربويون فى الماضى قد امتزجت فعلا ، فى نسيج متناسق مع اتجاهات حديثة أملتها ظروف المجتمع الأمريكى وتطوره وإمكاناته المادية فصار هذا التنوع - يوجد الآن - فى سياسات وبرامج مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية . ولذلك فهناك فلسفات أو قل وجهات نظر متعددة فيما يختص بهذه المرحلة تتمثل فى الآتى :

- برامج أعدت مناهجها بدقة وتحديد ، وبرامج أخرى وضعت خطوطها العريضة فقط .
- برامج تهتم بالجوانب المعرفية بالدرجة الأولى ، وبرامج يكون الثقل فيها على الجوانب الانفعالية .
- برامج تهتم أساسا بالمحتوى ، وأخرى تهتم بالعملية التربوية ككل .
- برامج تعتمد على التدريس المباشر من المدرسة أو المرشدة للأطفال ، وأخرى تعتمد على إتاحة الفرص للأطفال للاستكشاف .
- برامج تعتمد على المثيرات الداخلية للطفل ، وأخرى تعتمد على مثيرات خارجية .

وهذا .. والمحاولات مستمرة ولا تنقطع لتهيئة تربية أفضل للأطفال قبل المدرسة. وعلى سبيل المثال فإن إجراءات اتبعت للتدخل فيما يقدمه التليفزيون للصغار، وإثراء العلاقة بين البيت والمدرسة ، وتحقيق التوازن بين الجوانب المعرفية والانفعالية...إلخ .

ثالثا : من الشرق والغرب والشمال والجنوب

ما كادت أوروبا الغربية تفيق من آثار الحرب العالمية الأولى حتى خضبت أرضها بدماء الحرب العالمية الثانية التى التهمت ملايين الشباب والرجال ، بل سقطت المبانى فوق النساء والأطفال من غارات جوية وقذائف مدفعية . ونتيجة لتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية .. اتجه المسئولون تحت وطأتها إلى عناية بارزة بأمور الأطفال الصغار ، سواء فى دور الحضانة أو فى رياض الأطفال التى تسبق مباشرة التعليم فى المدارس الابتدائية .

غير أن فلسفات هذه المؤسسات أوجدت أنواعا شتى من سياساتها . بل إن فيها من أوجه الاختلافات الشىء الكثير . ومما يزيد الأمر صعوبة عدم الاتفاق على من يتحمل مسئولية هذه المؤسسات . هل هى وزارة الصحة أو الشئون الاجتماعية ، أو التربية ... ؟ وكان من الصعب أن تشترك تلك الوزارات سويا ، إذ إن لكل وزارة ميدانها ، وبالتالى اهتمامها فيما يجب أن يدور بتلك المؤسسات سواء من ناحية تخطيط البرامج ، أو من يقوم بالاشراف أو التدريس .

وقد أسست مؤسسات تربية الأطفال قبل المدرسة فى عديد من دول أوروبا الغربية على غرار النموذج الفرنسى للحضانات والمعروف باسم الكريش Creche أو الجاردرى Garderie ، وأهدافها تكاد تنحصر فى رعاية الأطفال أثناء النهار ، حيث تخرج الأمهات للعمل ، ويقبل الأطفال من الصباح الباكر وحتى السادسة مساء . وتقبل هذه الحضانات الأطفال فى السنتين الأولى والثانية من أعمارهم . وتشرف عليهم مشرفات غير مؤهلات تربويا وأحيانا تكون ممرضة ، غير أن الموقف تغير حديثا فأصبح هناك وعى بالفوائد التربوية التى يمكن أن تعود على هؤلاء الأطفال الصغار ، مما يتطلب إعدادا خاصا للمشرفات عليهم .

وفى دول أخرى ذات المستوى الاقتصادى العالى توجد مدارس الحضانة ورياض الأطفال ، وتقبل الأطفال من سن الثالثة أو الرابعة حتى السابعة ، وهو السن الذى يلتحق فيه الأطفال بالمدارس الابتدائية فى بعض هذه الدول . وتهدف مدارس الحضانة ورياض الأطفال إلى تهيئة بيئة تربوية صالحة ، كمرحلة إعداد وتهيئة للدخول فى المدارس الابتدائية . ولذلك .. فإن الرعاية التربوية والنفسية تسود العمل فى تلك الدور . كما يشرف على الأطفال مرشدات وأحيانا مرشدون أعدوا إعدادا تربويا ونفسيا سليما . ولايمضى الأطفال فى تلك المؤسسات إلا وقتا قليلا لا يتجاوز الثلاث أو الأربع ساعات فى اليوم .

وقد يوجد النوعان من هذه المؤسسات (أى لصغار الأطفال قبل الثالثة وللأطفال بعد الثالثة) جنبا إلى جنب مع ملاحظة اختلاف مهمة كل منهما [1] .

ومنذ حوالى ثلث قرن .. ازداد الوعى بأهمية البيئة الاجتماعية التى تعد خصيصا للأطفال قبل ذهابهم إلى المدرسة الابتدائية ، كما ازداد الوعى بضرورة تكوين جسور الاتصال بين البيئتين المنزلية والمدرسية لتكمل البيئة الواحدة عمل الأخرى ، حتى يكون هناك نوع من التكامل والاتفاق فى تربية الطفل .

تتدرج هذه العلاقة بين البيئتين ، أى بين المدرسة وأولياء الأمور فتكون فى أبسط صورها اختيارية .. كأن يذهب ولى الأمر إلى المؤسسة لسؤال عن طفلة ، أو تتصل المؤسسة بولى الأمر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وقد يتفق بعض أولياء الأمور مع إدارة المؤسسة على تكوين مجلس آباء ، كما يحدث فى بلجيكا . أما فى السويد وسويسرا والمملكة المتحدة .. فإن الهيئات

---

(1) W.D. Wall, constructive Education for Children, The UNESCO Press, Paris, 1965, pp. 162. 69.

المسئولة تشجع إقامة هذه الروابط بين أولياء الأمور والمؤسسة ، وقد تقترح كيف يتم تنفيذ هذا النوع من التعاون والترابط . أما فى دول أخرى مثل فرنسا وهولندا والنرويج فالقانون يحتم تكوين جمعيات الآباء والمعلمين لصالح الأطفال فى تلك المؤسسات التى تسبق المدرسة الابتدائية .

وهناك بعض الدول (ومنها بلجيكا) التى تهتم فيها المؤسسة بمعرفة الظروف المنزلية لكل طفل فيها ، حتى يمكن تخطيط البرامج فى ضوء الحاجات الفعلية لهؤلاء الأطفال ، وقد يتم ذلك عن طريق زيارة المرشدة لبيوت الأطفال والتعرف على أسرهم ، أو باستخدام شرائح ملونة أعدها أحد المتخصصين ، وهى تشرح الظروف المختلفة التى يعيشها الأطفال .

ومع اختلاف السياسات التربوية التى تتبعها دول أوروبا الغربية فى إعداد مؤسسات لتهيئة الأطفال قبل التحاقهم بالتعليم الإلزامى (الابتدائى) .. فإن هناك اتفاقا مهما على أهمية هذه التنشئة وضرورتها سواء للأطفال الذين يأتون من بيئات متواضعة اقتصاديا أو غيرها ، مما أكدته أو نادت به توصيات مؤتمرات عقدت خلال ربع القرن الماضى ، بل إن هناك برامج أعدت خصيصا لأولياء الأمور لتوعيتهم بالدور الذى يجب أن يقوم به البيت فى التربية حتى يتمشى مع ما تقدمه أو تعمله المدرسة .

المملكة المتحدة

لايسمح حجم هذا الكتاب أن يتناول كل دولة فى أوروبا ويعرض الخدمات التى تقدمها لتنشئة الأطفال قبل المدرسة ، ولذلك فسوف نقتصر على عرض الموجود الآن فى واحدة من الدول الأوروبية ، وهى المملكة المتحدة .

يطلق بعض المسئولين التربويين على جميع المؤسسات التى يلتحق بها الأطفال فى الجزر البريطانية اسم حضانات Nurseries ، ولكن هذه التسمية لها مدلول آخر فى

بعض الدول العربية ، فإننا نستخدمها فيما يختص بالثلاث سنوات الأولى من عمر الطفل. أما عن المرحلة السابقة مباشرة لدخول المدرسة الابتدائية .. فنستخدم تسمية (رياض الأطفال) إذ هى أكثر شيوعا وقبولا لدى القارىء العربى .

ويرى مؤلفو كتاب الحضانات الآن Nurseries Now (والذى رجعنا إليه سابقا) أن موقف مؤسسات ما قبل المدرسة محير جدا بل وشديد التعقيد . إذ هناك سبعة أنواع من تلك المؤسسات ، تختلف فى تبعياتها لهيئات أو وزارات ، وتختلف فى أهدافها وبرامجها وأساليبها ونوعيات المشرفين عليها وإمكاناتها المادية ... وسوف نعرض باختصار لكل مؤسسة أو دار، علما بأن مصادر المعلومات التى سنوردها هى[1]:

وسيكون العرض قاصرا على مقاطعتى انجلترا وليز من المملكة المتحدة .

أولا :

الحضانات النهارية التابعة للمجلس المحلى Council Day Nurseries وهى تقبل الأطفال تحت سن الرابعة وقلة منهم دون سن اثنى عشر شهرا . والحضانة مفتوحة من الساعة الثامنة صباحا إلى السادسة مساء ، خمسة أيام فى الأسبوع ، طوال العام .

---

(1) Department of Health and Social Security, Staff of Local Authority Social Services Department, at 30/9/76, DHSS London 1978.

Department of Health and Social Security, Children's Day Care Facilities at 31/3/1977, England, DHSS, London, 1979.

Welsh Office, Activities of Social Services Departments, Year Ended 31/3/1977, Welsh Office, Cardiff, 1978.

Department of Education and Science, Statistics of Education, 1977, Vol. I., HMSO. London, 1978.

ويكون القبول حسب أولوية احتياج الوالدين أو أحدهما لضرورة تواجد الطفل تحت رعاية أثناء النهار، فيمكن للأم العاملة أن تأخذ طفلها إلى الحضانة قبل الذهاب إلى عملها وتستعيده وهى فى طريقها إلى منزلها . وتعطى الأولوية أيضا تعطى للأطفال المعوقين ، أو أن يكون أحد الوالدين معوقا ، أو تكون بيئة الطفل المنزلية فقيرة جدا ، مما يستدعى ضرورة وجود الطفل فى وسط أفضل .

وتشرف على هذه المؤسسات هيئة الخدمات الاجتماعية التابعة للمجالس المحلية. والميزانية المرصودة لكل حضانة ضعيفة نسبيا ، وتؤخذ مصروفات قليلة جدا من الآباء، قد تصل إلى بضعة قروش فى اليوم . ولذلك فإنها لاتتسم بالاتساع فى المبنى ، وإن كانت توجد هناك حديقة صغيرة ، كما أن الألعاب والأجهزة محدودة فى عددها وتنوعها . ويتناول الأطفال الذين يحضرون مبكرين ، أى قبل التاسعة ، طعام الإفطار، كما يتناول جميع الأطفال طعام الغداء وقت الظهيرة ، والشاى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . وينقسم الأطفال إلى (أسر) تتكون كل أسرة من ١٢ طفلا ، وتشرف عليهم ممرضة متخصصة فى الحضانات ولها مساعدة ، كما تحضر أحيانا متطوعات للمعاونة .

كما هو واضح .. فإن هدف هذه الحضانات تهيئة بيئة يجد فيها الأطفال رعاية أثناء النهار ، كتعويض لما كان المفروض أن يوجد فى بيوتهم .

ثانيا فصول ومدارس الحضانة Nursery Schools and Classes

تشرف عليها السلطات التعليمية المحلية ، وبعض هذه الحضانات ملحقة بالمدارس الابتدائية ، ولكن لها مساحة مخصصة مستقلة ، تنقسم إلى فناء وحجرات بنيت خصيصا لها . يلتحق بها الأطفال من سن الثالثة إلى الرابعة وإن وجد أحيانا عدد قليل جدا دون سن الثالثة . تشرف على الأطفال مدرسة مؤهلة تأهيلا جامعيا وأحيانا تحمل بعضهن مؤهلات أعلى من الشهادة الجامعية الأولى . وتساعد المدرسة

معاونة تحمل شهادة التمويض فى دور الحضانة . وتبلغ نسبة المدرسات والمساعدات ١ لكل ١٣ طفلا. وينقسم اليوم إلى فترتين فترة قبل الظهر ، وأخرى بعد الظهر ومدة كل فترة ثلاث ساعات ، ويمكن للطفل أن يحضر الفترتين أو فترة واحدة فقط ، حسب ظروف ولى الأمر.

والحضانة مجهزة بعدد كبير ومتنوع من الأجهزة والألعاب وكميات من المواد الخام مثل الصلصال والرمل ... إلخ . وأيضا تتوفر الأدوات كالأقلام والأوراق بأحجام وألوان مختلفة وكلها فى يد الأطفال ، يتعاملون معها تحت إشراف المدرسة . وللأطفال الحق فى تناول اللبن الحليب فى أى وقت يشاءون . وتعقب هذه الحضانة ما يسمى باسم مدرسة الطفل Infant School ، وهى سابقة مباشرة للمدرسة الابتدائية الإنجليزية . وقبل أن يترك الطفل الحضانة للالتحاق بمدرسة الطفل يتعلم كيف يكتب اسمه . وتتميز هذه الحضانات عن النوع السابق بالغنى ، واتساع المكان والمؤهلات العالية للمشرفين عليها . كما يلاحظ أن غالبية الأطفال يأتون من أسر مستريحة اقتصاديا ، وهى تسهم فى نفقات الدراسة التى تهدف إلى مد الأطفال بخبرات تربوية مطلوبة قبل التحاقهم بالمدارس الابتدائية .

ثالثا : مجموعات اللعب Play Groups

الأماكن التى تستقبل الأطفال فى سن الثالثة وأحيانا فى الرابعة لاتضم إلا حجرة كبيرة المساحة ، وحجرة أخرى ، أو حجرتين وأمامها فناء محدود المساحة جدا ، إذ توجد هذه المجموعات بأعداد كبيرة جدا وبعضها يكون وسط مناطق سكنية مزدحمة. والإشراف الحكومى محدود ، وإنما يكون لهيئات مدنية أو خيرية أو مؤسسات دينية الفضل الأكبر فى وجود هذه (المجموعات) . وتضم كل مجموعة عددا من الأطفال يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ طفلا يحضرون من الساعة التاسعة والنصف صباحا إلى الظهر . وتشرف على الأطفال عادة مشرفة ، درست سنة واحدة فى معاهد تعليم الكبار

لكى تتعرف وتتدرب على أساليب التعامل مع أطفال هذا السن . وغالبا ما تضم كل مجموعة مشرفتين ، إلى جانب المعاونة التى تتلقاها من أمهات الأطفال اللاتى يوزعن العمل بينهن بصورة دورية .

وتهيأ للأطفال فرص متوسطة لاستخدام بعض الألعاب والأجهزة التعليمية سواء داخل المبنى أو فى قطعة فضاء ملحقة به . وتتقاضى المشرفات أجورا يومية متواضعة جدا ، بل هى أقل مما يعطى لبعض الخدم ، وتحاسب على الأيام والساعات التى تحضرها ، ولا تؤجر - بالطبع - على أيام العطلات أو الفترات التى لاتستقبل فيها هذه المجموعات الأطفال . كما يدفع لكل طفل عن اليوم الذى لا يمتد أكثر من ثلاث ساعات مصاريف تتراوح حسب ظروف الأسرة ، ولكنها لاتزيد فى اليوم عن أقل من نصف جنيه .

وتهدف هذه المجموعات إلى إتاحة فرصة للأطفال للعب والتعامل مع غيرهم فى مثل أعمارهم ، كما تتاح الفرص للأمهات للتعرف - بصورة أفضل - على أساليب التعامل مع الأطفال .

رابعا : حضانات خاصة تطوعية Private/Voluntary Nurseries

وهذه تتفاوت فى عدد الأطفال الذين يقبلون بها ، وكذلك فيما تجهز به من أدوات وأجهزة ، وفى المساحة المخصصة داخل الحجرات وخارجها ، ولكنها كلها تتفق فى الهدف وهو تهيئة أساليب العناية بالأطفال ، ومدهم ببعض الخبرات الاجتماعية والتربوية . وتتراوح أعمار الأطفال بين الثالثة والرابعة والخامسة ، ويبلغ متوسط عدد الأطفال فى كل حضانة ثلاثون طفلا ، تشرف عليهم مشرفتان مؤهلتان تأهيلا متوسطا وأحيانا يكون الإشراف على يد طالبات لم يوفقن فى دراستهن الثانوية .

وتملك هذه الحضانات جمعيات أو هيئات خاصة ، والظاهر انها لاتهتم كثيرا بالانفاق عليها ، على الرغم من أن متوسط المصروفات التى يدفعها ولى الأمر هو

ثمانية جنيهات في الأسبوع ، نظير وجود الطفل في الحضانة من الساعة التاسعة حتى الرابعة بعد الظهر . ويمكن للطفل البقاء بعد الرابعة نظير أجر إضافي ، قدره جنيها عن كل نصف ساعة ، على ألا يتعدى الساعة الخامسة والنصف .

خامسا : فصول الاستقبال أو مدرسة الطفل

Reception Classes or Infant School

تتلقى الأطفال في بداية مرحلة التعليم الاجباري أو الالزامي (المدرسة الابتدائية) ، وتفتح أبوابها للأطفال في سنّ الخامسة .

إذن فإن ما يقدم للأطفال قبل الخامسة يمكن أن يطلق عليه بالتحديد العلمي (مرحلة ما قبل المدرسة) ، وإن كانت هذه السنة الخامسة أصبحت تعتبر تمهيدا ومرحلة انتقالية، يمر فيها الطفل قبل أن يتلقى مناهج المدرسة الابتدائية . ونجد في فرنسا على سبيل المثال أن السنة الأولى الابتدائية وهي من سن خمس سنوات تعتبر سنة تمهيدية، يعد فيها الأطفال للتعليم الابتدائي الفرنسي ، ويتشابه النظام أيضا في بلجيكا .

وكان من رأينا في صفحات سابقة اقتراح أن يكرس الصف الأول الابتدائي في مدارس مصر ، ليكون بمثابة تهيئة اجتماعية وعقلية وخلقية وجسمية وانفعالية لتقبل مناهج التعليم الابتدائي التي يمكن أن تتغير عن وضعها الحالي ، أو تدمج السنوات الستة في خمس سنوات فقط .

أما عن فصول الاستقبال في المملكة المتحدة .. فإنها تقبل الأطفال في حوالي سن الخامسة ، ويلتحق بهذه الفصول كل الأطفال سواء حضروا مدارس الحضانة أو لم يحضروها ، وينقسم العمل إلى فترتين أو فصلين دراسيين : في الفصل الأول يلعب الأطفال معظم الوقت سواء داخل حجرات واسعة أو في الخارج ، وتجهز الحجرات بألعاب تعليمية متنوعة ، كما توجد بها أدوات وخامات بوفرة . ومع تقدم العام الدراسي - أي

فى الفصل الدراسى الثانى - يخضع الأطفال لتربية تهتم بتهيئتهم لما سيدرسونه فى العام التالى، فيتعلمون مهارات التلمذة المطلوبة من تلميذ المدرسة الابتدائية .

وقد سبق أن أوضحنا ماهية هذه المهارات . ويستمر العام الدراسى لمدة أربعين أسبوعا، ويتراوح عدد الساعات يوميا حسب رغبة أولياء الأمور ، لكنها لاتقل عن الفترة من التاسعة إلا ربع صباحا إلى الظهر . وفى حالة استمرار الأطفال بالمدرسة إلى .. فإنهم بعد الظهر يتناولون طعام الغداء .

أما عن مؤهلات المدرسات فالغالبية العظمى منهن مؤهلات للتدريس وللتعامل مع أطفال هذه المرحلة السابقة للتعليم الابتدائى ، ويساعدهن عدد محدود من المعاونات اللاتى يحمل بعضهن شهادة ممرضة لدور الحضانة .

ونظرا لأن الالتحاق بهذه المدارس إجبارى ومجانى .. فإن إعدادها كبيرة جدا ، مع ذلك فهناك نقص فى الأماكن لاستيعاب كل الأطفال الذين يبلغون سن الالتحاق .

سادسا : راعيات الأطفال المسجلات Registered Childminders

إنهن أمهات لديهن فى أغلب الأحيان أطفال يقمن برعايتهم ، وفى نفس الوقت ترى كل أم عددا آخر من الأطفال فى سن ما قبل المدرسة ، وهن مسجلات لدى السلطات المحلية . ولكى يتم هذا التسجيل .. لابد من توافر شروط معينة فى المكان وعدد من ترعاهن ، فلا يزيد عدد الأطفال دون الخامسة عن ثلاثة ، بما فيهم أطفال الراعية ، على أن الأمر ليس بهذه الدقة فيما يختص بالآتى :

(أ) ليست كل الراعيات مسجلات فإن بعضهن يقبلن الأطفال دون معرفة السلطات المحلية هربا من الضرائب التى من المفروض أن تدفع ، وهربا من إجراءات التفتيش الدورية والمفاجئة التى تقوم بها هذه السلطات .

(ب) عدم الالتزام بالعدد المقترح للأطفال .

(جـ) امتداد الرعاية بحيث تشمل أحيانا ايواء كاملا ، أى تحتضن الراعية الطفل طوال فترة غياب الوالدين مثلا ، ويمكن للراعية أن ترعى الأطفال فى سن المدرسة فى فترات المساء ، أو فى الإجازات حسب ظروف الوالدين .

لهذا كانت الإحصاءات الرسمية دائما تشير إلى عدم كفاية المعلومات عن مراكز الراعيات اللاتى لا يشترط فيهن حمل مؤهلات معينة . ويدفع أولياء الأمور فى قلب لندن - فى المتوسط - حوالى عشرة جنيهات أسبوعيا عن كل طفل ، ومع ذلك فالمصاريف تتراوح عامة فى مناطق أخرى بين جنيهين وعشرة حسب الظروف .

وتحتفظ السلطات المحلية بقائمة انتظار للأطفال الذين ترغب أسرهم فى إلحاقهم لدى الراعيات، فى حالة مساعدة هذه السلطات لهذه الأسر بدفع مصاريف الرعاية كلها أو بعضها . والمتوقع بطبيعة الحال أن تكون الراعية مسئولة عن تدبير شئون أسرتها هى ، ثم تدبير أمور الأطفال الذين ترعاهم من حيث نظافتهم وغذائهم ونومهم وراحتهم...إلخ ، ولا يتوقع هنا إلا النزر اليسير ، أو لمحة خاطفة من تهيئة عقلية ، وقد نلمس شيئا من التربية الخلقية والاجتماعية والانفعالية .

سابعا : الحضانات الملحقة بأماكن العمل Workplace Nurseries

وأيضا يظهر هنا الخلط المربك فى التسميات للمؤسسات التى تقبل الأطفال قبل سن المدرسة ، وعادة تقبل هذه الحضانات الأطفال دون الرابعة ، وأحيانا فى سن مبكر جدا. ولكن من الضرورى أن يكون كل المقبولين من أبناء العاملات فى ذلك المصنع ، أو تلك الشركة أو هذه المؤسسة الحكومية ... إلخ . ولابد أن تكون الأم لا الوالد هى التى تعمل فى تلك الأماكن ، فإذا تركت العمل خرج طفلها معها .

وتدفع المؤسسات أو الشركات - عادة - أغلب التكاليف التى تتطلبها الحضانات ، وتدفع الأمهات الباقى الذى يخصم من مرتباتهن . وتتكون الحضانة عادة

من مجموعة حجرات سابقة التجهيز ، لها فناء صغير أو كبير حسبما تسمح الظروف ، وتتولى الإشراف على الأطفال ممرضات متخصصات فى دور الحضانة ، ولديهن بعض الدراية ببعض الأمور التربوية .

وطبيعى أن تحضر الأم طفلها عند مجيئها صباحا ، ثم تتسلمه بعد انتهاء العمل، ولا يسمح لها بزيارته أثناء فترة بقائه فى الحضانة ، والتى تمتد بامتداد ساعات العمل فى المؤسسة . ويتناول الأطفال الغداء ، ولديهم الفرصة للراحة والنوم والنشاط خارج الحجرات ، والاستمتاع بما يقص عليهم من قصص ، والتعامل مع الألعاب والأجهزة (التعليمية) المسلية ، والتى - عادة - تتوافر بكثرة فى تلك الحضانات التى تهتم بها المؤسسات التى هى ملحقة بها . فقد وجد المسئولون أن اطمئنان الأم على طفلها أثناء عملها يبعد عنها قلقا وتخوفا قد يؤثران على انتاجها . ففى أحد المصانع مثلا تتولى العمل على خط الإنتاج والسكرتارية وشئون العاملين إناث ، منهن أمهات لديهن أطفال ، أى أن جانبا كبيرا من العمل فى أيدى الإناث .

كان ذلك عرضا سريعا للمجهودات التى تبذل لرعاية ونشئة الأطفال فى مقاطعتين بالمملكة المتحدة ، ومع تسليمنا بقول مربين بريطانيين بالخلط والارتباك فى سياسة تربية الأطفال قبل المدرسة .. فإن اهتماما واضحا يظهر فى التمشى مع ظروف الأسر فى ذلك المجتمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يظهر الاقتناع الكامل بالأهمية المطلقة لتهيئة بيئة صالحة ، يتواجد فيها الأطفال قبل التحاقهم بالتعليم الابتدائى . صحيح أن بعض هذه البيئات لاتخرج عن كونها أماكن يذهب إليها الأطفال فى وقت انشغال الأمهات عنهم ، لكن بعض تلك البيئات تهتم بأكثر من مجرد عملية إيواء لتمتد إلى عملية التنشئة والتهيئة ، التى تؤثر فى الطفل قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية .

وقد أشرنا فى صفحات سابقة إلى كثرة البحوث العلمية التى تجرى على هذه المرحلة وأطفالها ، وقد بينا اتجاه البريطانيين فى السنوات القليلة الأخيرة نحو تغيير أو تعديل ماهو حادث فى رعاية وتنشئة الأطفال البريطانيين . وليس الأمر قاصرا فقط على المملكة المتحدة ، بل هو شاغل البال التربوى فى مجتمعات أخرى .

وإذا كنا قد عرضنا تلك النماذج ففرضنا أن يسترشد بها - مع غير قليل من التعديل - فى محاولة لاستخدام مثيلاتها أو غيرها ، مما يتفتق عنه التفكير مناسبا لظروفنا الخاصة . فالغرض الأساس هنا هو مصلحة الطفل الذى ينمو ويكبر ملتحقا بمراحل تعليمية تالية تؤدى به إلى مسئولياته فى المجتمع .

فى أقصى الشرق

هى جزيرة كبيرة ممتدة يحتويها النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، يسكنها عدد محدود من البشر ، وتمرح فيها ملايين من حيوان الكانجارو ... والأرانب .

يسكن أستراليا أقوام جاءوا من مجتمعات شتى ، وكان طبيعيا أن تتأثر التربية ونظامها بما عرف عنها فى مجتمعات متقدمة ، وربما كان تأثير المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية واضح المعالم فيما ساد الأنظمة التربوية فى هذه الجزيرة القارة .

والظاهر أن هناك دافعين أساسيين أديا إلى ظهور رياض الأطفال فى أستراليا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وهما :

١- رأى فرويل القائل بتهيئة بيئة منظمة يربى فيها الطفل فى مرحلة الطفولة (أسماها رياض الأطفال) نظرا لأهمية هذه المرحلة فى نمو الفرد ، ولتأثيرها على المراحل التالية .

٢- أما الدافع الثانى فهو إنسانى فى طبيعته خاصة . أنه كان هناك اهتمام بالأطفال الذين يعيشون فى بيئات فقيرة لا تتيح لهم فرص النمو المطلوب .

ولم تكن هناك علاقة بين الدافع الثانى والدافع الأول .. لأن فروبل لم يتحدث عن الأطفال الفقراء ، وإنما عن سيدات من أسر غنية ملأ قلوبهن حب البشر ، ولم يسترحن لما يعانيه أطفال الأسر الفقيرة ، فأنشأن مجموعة من رياض الأطفال ، مركزات الاهتمام على النواحى الجسمية والصحية والتغذية . وقد قل تأثير هذا الدافع مع مرور السنوات وإن ظل له أثر فى إقبال بعض المدرسات على العمل فى رياض الأطفال ، رغم ضآلة المرتب إذا قورن بمرتبات مراحل التعليم الأخرى .

وتوجد الآن بعض مؤسسات تعليم الطفل قبل المدرسة فى الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة ، تديرها وتنفق عليها وزارتا الصحة والشئون الاجتماعية ، وهذا هو السبب فى أن تلك المؤسسات تهدف إلى العناية بالجوانب الصحية والجوانب الاجتماعية بالدرجة الأولى ، وهذا الاهتمام يختلف فى طبيعته عن اهتمامات وزارة التربية فى حالة اشرافها على أمثال تلك المؤسسات . ونتيجة لهذا .. ساد خلط فى سياسة رياض الأطفال فلم يوجد فكر موحد ، إذ كان هناك تأثير فروبل ، واتجاه وزارة الصحة ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة التربية ، وكانت هناك بعض الأفكار التى وردت عن اتجاه التحليل النفسى ، وانتشار التربية التقدمية فى أمريكا ... كان الخلط كبيرا ، عرقل حركة تطوير رياض الأطفال ، بل امتد هذا الأثر إلى المرحلة الابتدائية .

ظهرت آثار هذه العرقلة فى التطور فى :

١- حيرة المدرسات العاملات برياض الأطفال فلا تحديد للجهة المسئولة عنهن وعن مستقبلهن ... هل هى وزارة الصحة ، أو الشئون الاجتماعية ، أو التربية ؟

٢- اتجاه البعض إلى اعتبار مرحلة تربية الطفل قبل المدرسة مرحلة مستقلة عن النظام التعليمى السائد فى أستراليا أى التعليم العام والعالى ، اللهم إلا الموقف فى

جزيرة تسمانيا فى أقصى الجنوب التى رأت السلطات فيها اعتبار مرحلة ما قبل المدرسة ضمن السلم التعليمى . وبذلك قضت على الشكوك السائدة بين فئتى مدرسات رياض الأطفال ومدرسات الصف الأول الابتدائى (مدرسة الطفل) ، فقد كانت مدرسات رياض الأطفال يرين أن عمل مدرسات مدرسة الطفل تغلب عليه الناحية التعليمية ، كما كان يساور مدرسات مدرسة الطفل شك كبير فى فائدة رياض الأطفال .

والظاهر أن وجه الخلاف يكاد يتبلور فى عدم وضوح أهداف مرحلة ما قبل المدرسة ، فهل هى أهداف اجتماعية وذات طابع تهذيب الانفعالات ؟ أم أنها تركز على النمو العقلى ذى الطابع التعليمى التحصيلى ؟ [1] .

يرى بعض المسئولين أن وصف ما يتم فى هذه المرحلة بأنه «عملية تربية» أمر فيه شك ، وأمامه علامات استفهام .

أما بالنسبة لأولياء الأمور .. فإن المؤسسات التى يذهب إليها الأطفال قبل المدرسة لها وظائف متعددة ، فهى تتيح الفرص للأطفال للاختلاط والتعامل مع أطفال فى مثل أعمالهم ، كما أن الطفل يعبر عن مشاعره وأحاسيسه ، وعامة فهى مرحلة تهيئ الطفل للالتحاق بالمدرسة الابتدائية ، من حيث إنها تعد مواقف يعيشها الطفل اجتماعيا وانفعاليا وعقليا ، هى فى رأيهم مرحلة مرغوبة ولكنها ليست ضرورية .

---

(1) G.F Ashby, Pre-School Theories and Strategies, Belbourne Univ. Press, Carlton, Victoria, 1972, pp. 6-11.

على أن هناك اتجاهات حديثة نحو اعتبار هذه المرحلة جزءا من السلم التعليمى ويجب أن تكون لها أهداف تربوية واضحة ومحددة ، وأن تخطط برامجها فى ضوء هذه الأهداف ، وبذلك تبتعد عن الخلط والارتجالية وتضارب الأفكار ، وتصبح فعلا مرحلة تهيىء الطفل لدخول المدرسة الابتدائية .

ولعلنا ننتهز هذه الفرصة فنسوق مثالا ننتقل به - ونحن فى أقصى الشرق - من استراليا إلى الصين ذات الألف مليون نسمة ، والتى نهضت فى وثبات جبارة لتقول للعالم أجمع انها هنا ولها قول وعمل . واستمع إليها العالم . الاستراتيجية الصينية وهى تنشىء الأطفال لها مذاق خاص ، نحن فى مصر نتكلم كثيرا عن هذا المذاق ، ونفعل قليلا له وعنه . إذن نحاول أن نتذوقه بعد أن تذوقنا ما يحدث فى مجتمع غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى .

طلعت بعض الأفكار منادية بما يسمى ضرورة تنشئة أطفالنا على حب العمل، خاصة العمل اليدوى ، وكانت اندفاعات وانفتاحات فى حماس بالغ تحت شعار التطبيق العملى للنظرى فتضمنت مناهج ومقررات (التعليم الأساسى) دراسات عملية ينتج فيها التلاميذ فى مدارسهم بعض المصنوعات ، غالبا ما يلقى أكثرها دون استفادة منه. والقول عندنا سهل والتنفيذ الجيد صعب ، ولذلك فيأخذ الهواء الكثير من الأقوال الجادة ويحملها بحمل الهزل على يد الذين ينفذون الأقوال ، وتصبح العملية فى معظمها مظهرية استعراضية ، وتكون النتيجة لاتربية ولا حب للعمل .

أطفال فى الصين فى دار حضانة متواضعة المبانى ، فى جزء منها حجرة هى (مصنع صغير) ليست به أجهزة تحتاج لأموال طائلة ، ولا اتصالات كهربائية معقدة ، ولا لفنيين متخصصين ، وإنما بها مواد بسيطة مغلفة بروح العمل الجاد والرغبة الصادقة فى زرع اتجاه لا إدعائى ولا مظهرى ، وليس معدا لاستقبال مراسلى الصحف وعدسات التليفزيون ، وصوت الموسيقى التى تعزف نغمات الإدعاء والنفاق والرياء .

فقط هى مجوعة لمبات كهربائية صغيرة تصلح للبطاريات ، وجهاز أقل من حجم اليد يقول ما إذا كانت هذه اللمبة سليمة أم فاسدة ، ثم صندوق ورقى فيه ثقوب ، ثم ورق لاصق ، ثم قيمة أخلاقية لا ترى ... هى الإيمان .

يدخل الأطفال . أمام كل طفل تلك المجموعة من الأدوات ، يختبر كل لمبة فإذا كانت صالحة وضعها فى مكان مثقوب بالصندوق أعدت له . وإذا كانت فاسدة ألقاها فى سلة مجاورة وعندما يكمل عدد اللمبات عدد الثقوب فى صندوق ، يقفل الطفل الصندوق ويلصقه ثم ينقله إلى مكان آخر ، ويتعامل مع لمبات أخر وصندوق آخر لمدة ثلث ساعة فقط ، تتكرر مرتين كل أسبوع ، ثم إلى التصدير الخارجى .

مكان آخر هو مصنع صغير فيه حبات من الفول ، بعضها سليم صحى وبعضها فاسد وبين الحبات شوائب . مجموعة أكوام من هذا الفول فى أوعية ، كل كوم فى وعاء أمامه وعاءان أصغر . يدخل الأطفال ، ويتجه كل طفل إلى كومة فى وعاء ، ثم يجلس وتتناول أصابعه مجموعة حبات لتفحصها عيناه . يلقى الصحيح السليم فى وعاء ويلقى الفاسد والشوائب فى وعاء آخر . يخرج هؤلاء الأطفال بعد أن أمضوا ثلث ساعة. يدخل أطفال آخرون ويمضون نفس المدة فى تعبئة الحبات السليمة ، معهم أكياس يدورون بها جامعين الحبات السليمة . تقفل الأكياس وتوضع العلامات عليها ، وتلصق، ثم إلى التصدير الخارجى .

وننتقل إلى مصنع آخر حيث يصنف الأطفال أجزاء مختلفة ومتنوعة تستخدم فى تصنيع (ماكينات) الحياكة ، ويجمعون كل صنف فى صندوق ... ثم إلى مصنع إنتاج ماكينات الحياكة .

وتنتقل إلى مصنع رابع (وما أكثر تعدد واختلاف المصانع) حيث توجد فيه خيوط وبطاقات عليها اسم منتج معين ، وإرشادات خاصة به ، والبطاقة مثقوبة من طرفها.

نشاط آخر يظهر فى تلك المؤسسات الصينية الخاصة بالأطفال قبل سن المدرسة ، حيث توجد قطعة أرض زراعية محدودة المساحة ، ليس الهدف منها أن يتعلم الأطفال بعض أسس الزراعة أو أثر التغذية على النبات أو أى مبادىء علمية فقط ، لكن الأمر المهم أن الأطفال يخرجون حيث تحتضنهم الأرض ، وبكل الحب ، وبكل الحماس ، يضعون البذور فيها ، وبالأيدى الحانية الصغيرة يروون ظمأها ، ثم ينتقلون إلى زرع قد نبت وارتفع يخلصونه مما يضايقه من أعشاب طفيلية ، ويلتقطون ما سقط على الأرض مما ذرته الرياح ... إنهم لايتعلمون الزراعة ولكنهم يقدرون - فى عمق - حياة الفلاح وعلاقته بالحقل وبالزرع الذى سوف يأكلون ثماره . غيرهم يتعب ويكد ويشقى حتى يأكلوا ويستمتعوا بلذة الطعام ... والقيمة الخفية هنا أن الطفل كما يعمل غيره له عليه أن يعمل هو لغيره .

هكذا تتكون الاتجاهات والقيم ، بالعمل لا بالقول . يثرى تلك الخبرات ، على سبيل المثال ، أن يذهب أطفال الحضانة إلى مصنع كبير يصنع البطاريات مثلا ، أو يصنع آلات الحياكة ، أو يستخدم البطاقات التى أعدوها ، أو ... إلخ .

الأطفال أمام الآلات الضخمة ، العمال على خطوط الإنتاج يعملون ، أصوات العمل هادرة قوية ، السقوف عالية والآلات لاتكل ولا تقف ، الحركة مستمرة والأطفال يتنقلون . مكان ما والمنتج أصبح كاملا . طفل يصيح «أنا هنا اشتركت فى إتمام هذا المنتج ... أنا اشتركت فى صنعه» . هذا طفل صينى عمره خمس سنوات فى أعماقه قيمة العمل بدأت فعلا تتكون وتتمكن . هو واحد من عشرات الملايين من الأطفال كونوا وسيكونون لهذا المجتمع التقدم .

الأعمال العظيمة تنبعها أفكار عظيمة .

سر هائل فى العظمة يكمن فى الصدق والإيمان الحقيقى ، المنزه عن رغبات فيها تطلعات ذاتية واستجداء لتكوين أمجاد وقد هبت شعوب وأمم فى الماضى فى كل

التكتل والالتصاق بأن تحديا كان لهم بالمرصاد ، فعملوا نهارهم بكل الجد ، وناموا ليلهم يحلمون بتحدى التحدى . وهبت شعوب كرجل واحد بإيمان راسخ رسوخ الجبال ، ممتد إلى أعمق الأعماق ... ونجحوا ... ويذكرهم التاريخ الآن بالإعجاب والتقدير . وكانت أمتنا العربية فى زمن ما فى التاريخ لها الأمجاد فى كل الميادين . إنهم قوم آمنوا بربهم . وتعمق الإيمان فيهم ، أرادوا الدفاع عن هذا الإيمان فقابلوا التحدى بتحد .

اليابان دولة فى شرق آسيا دخلت الحرب العالمية الثانية ، وحققت انتصارات عسكرية مباغتة حتى سقطت قنبلتان ذريتان : إحداهما فى هيروشيما والثانية فى نجازاكى . استسلمت . كانت الهزيمة مريرة ، ولكن مقابلة التحدى كانت أفتك من أى سلاح .

عشرات الملايين من اليابانيين فى جزرهم محدودة الموارد الطبيعية وقفوا وقفة رجل واحد . التربية فى المدارس اليابانية معبأة صوب هدف واضح ، كل اليابانيين فى وقفة هائلة لمقابلة التحدى والخطر ، إذ يمكن أن يحدث الخطر فى أى وقت . إنها إرادة التحدى التى جعلت اليابان اليوم فى أقل من أربعين سنة - تكتسح أسواق العالم صناعيا . السيارات والأجهزة الالكترونية ... تغمر أسواق أوروبا الغربية وأمريكا وبجودة عالية وأسعار منافسة . إنه غزو المنهزم ، وهو غزو مكلل بالنجاح . إن تكوين العقل اليابانى لم يكن بشعارات أو خطب أو تصريحات ، أو قرع على طبول وأغان حماسية وأناشيد وطنية ومواكب ووعود ، ووفرة من باقات الورود ... وإنما كان بتهيئة المواطن اليابانى منذ طفولته وإعداده خلقيا واجتماعيا وجسميا وعقليا ، ليكون عضوا فى مجتمع هو الآن يتحدى العالم ... وموارده الطبيعية قليلة متواضعة ، لكنه يفيض إيمانا وحبا لأرضه وأهله ... إنه المزج بين الإيمان بالدافع الفردى القوى ، مع الالتزام الجماعى القوى .. وتبادل الفرد والجماعة هذا الالتزام

وتعال معنا أيها القارىء نتساءل فى بساطة [١] : إذا كان الطفل اليابانى - وهو على حجر أمه - تزرع فيه هذه القيم التربوية عظيمة الشأن، فماذا تفعل مؤسسة ما قبل المدرسة ؟ ومن يذهب إليها ؟ ولماذا ؟ .

كتب ماسارو ايبوكا Masaru Ibuka مدير مؤسسة سونى الصناعية كتابا حقق توزيعا كبيرا ، عنوانه : «روضة الأطفال تأتى متأخرة»... قال فيه : إن أنسب وقت يتعلم فيه الطفل بطريقة مخططة ، أى نظامية ، هو بواكير الطفولة . وكان من نتيجة ذلك أن يكرس الوالدان جهدا مركزا للتنمية المعرفية لطفلهما ، وتزايد عدد الأطفال الملتحقين بالحضانات (قبل رياض الأطفال)، كما لم يضن أولياء الأمور فى بشراء الألعاب التعليمية لأطفالهم .

وينادى إيبوكا مثله - مثل المعلمين وعلماء التربية - بضرورة بذل مزيد من الوقت والجهد للتربية المتكاملة للطفل ، وبدلا من ذلك .. فإن أولياء الأمور يهتمون بالتعليم المدرسى من قراءة ، وكتابة ، وحساب ، فهذا فى رأيهم إجراء مهم ، يؤدى إلى نجاح أبنائهم فيما بعد فى مراحل التعليم . وفى هذا الصدد نجد أولياء الأمور يعدون أنفسهم مع إعدادهم لأطفالهم، لاجتياز امتحانات القبول فى أكثر رياض الأطفال رقيا.

وفى دراسة حديثة .. سئلت أمهات الأطفال فى سن ما قبل المدرسة عن اتجاهاتهن عن «التربية قبل المدرسة» من حيث : تنشئة أبنائهن وتعلمهم فى مؤسسات معدة لذلك. أجابت الأمهات بأن عملية النمو والتنشئة تتأثر بالبيئة ، وأن صفات الطفل لا يولد بها . وأن مؤسسات ما قبل المدرسة يجب أن توفر بيئة آمنة لنمو الطفل الجسمى ، وأنه لايجب التركيز على التحصيل المعرفى ، بل يجب التأكيد على التطبيع الاجتماعى، وأن يقل الاهتمام بإعداد الطفل للمدرسة الابتدائية .

---

(١) سعد مرسى أحمد ، وكوثر كوجك : التربية والتحدى «التجربة اليابانية» ميرى هوايت (عرض وتعليق) - القاهرة - عالم الكتب - ١٩٩١ - الفصل الثانى .

أما عن صفات المعلمة التى يفضلنها لأطفالهن فكانت الحنو والحرص فى الرعاية، ويأتى بعدها الصبر والحيوية . وأخيرا والأقل أهمية : صفات الحزم والشدة والمعرفة العلمية .

وتقول إحصاءات وزارة التربية والتعليم اليابانية : إنه فى عام ١٩٧٩ التحق ٦٥٪ من أطفال سن الخامسة ، و ٥٠٪ من أطفال سن الرابعة ، و ٥ر٧٪ من أطفال سن الثالثة بدور الحضانة ورياض الأطفال ، ونصف هذه النسب بدور إيواء نهارية ، بمعنى : أن كل الأطفال تقريبا فى سن الخامسة كانوا ملتحقين بمؤسسات خارج البيت . ويذكر أيضا أن ٨ر٦٣٪ من مجموع الأطفال - فى سن الثالثة والرابعة والخامسة - كانوا ملتحقين بمؤسسات تسبق المدرسة الابتدائية . وقد تضاعف عدد هذه المؤسسات من سنة ١٩٦٥ إلى ١٩٧٩ إذ بلغ عددها ١٥٠٠٠ دار ، دخلها حوالى ٥ر٢ مليون طفل منهم ٧٤٪ فى مؤسسات غير حكومية تدفع فيها مصاريف باهظة .

ونظرا لانتشار دور ما قبل المدرسة فى اليابان .. فقد تزايد نفوذها وتأثيرها بما تقدمه من بيئة ومناخ تربوى . وتوصف بأنها مثل البيئة المنزلية ، وأن ٩٦٪ ممن يقومون على تربية الأطفال من الإناث ، وكلما صغر سن الطفل تعهدته أنثى وليس رجلا . أما الجو العام فى الدار فتصفه كاثرين لويس وآخرون Catherine Lewis بأنه مشبع بالدفء والعطف ، وبعيد عن الأكاديمية المدرسية ، ويتمحور حول اللعب . ويؤكد غالبية المعلمين والمعلمات على الجوانب الاجتماعية والسلوكية ، بالرغم من رغبة أولياء الأمور فى الاهتمام الأكثر بالجوانب المعرفية ، كما يشيع تشجيع الأطفال على الاعتماد على أنفسهم فى قضاء حوائجهم كلما أمكن ذلك .

ماذا يتعلم هذا الوافد فى عالمه الجديد ؟ وبصفة عامة .. فإن الأمر فى رياض الأطفال ، والسنوات الأولى فى المدرسة الإبتدائية لايختلف جذريا عما عهده من قيم

فى البيت . ولكن السياق مختلف جدا ، فقد كانت الأم كلها للطفل ، أما فى هذه البيئة الجديدة .. فإنه واحد من كثيرين ، وإن كان الاهتمام موجودا . وبذلك يكون الدرس الأول الذى يتعلمه الطفل هو أن غيره أيضا لهم نفس الاهتمام ، وبذلك يتعلم الطفل اليابانى أن لغيره من الأطفال اهتماماتهم ورغباتهم أيضا ، وعليه أن يحس بهم ويقدر مشاعرهم ، وأنه يكافىء لهذا الإحساس. وبمعنى آخر .. فإن الأمر يتجاوز انسجام الطفل مع غيره ، إلى إحساسه بأن هذا السلام والوئام مع غيره قيمة منشودة فى حد ذاتها .

أما الدرس الثانى الذى يتعلمه الطفل اليابانى ... فهو أن هناك طريقا سليما معينا لأداء عمل ما ، وأن معرفة هذا الطريق تستأهل ما يبذله من جهد ، ووقت للإحاطة به. وتدريجيا ، وببطء .. يشجع الأطفال على الاستماع والتركيز ، كخطوة أولى نحو تعلم أداء الأعمال بطريقة سليمة . وبالمثل .. فإن عادات المدرسة تنساب إلى الأطفال بهدوء (وهذا ما نريده) مع توجيه الانتباه إلى ما يريده المعلمون ، فالروضة هى المكان الذى يتكامل فيه الطفل مع مجموعة أطفال ، وأن يستشعر الحساسية الوجدانية نحو غيره ، وأن يعرف الطريق السليم لأداء عمل ما ... هذه هى الدروس المهمة ، وهذا ما تريده هذه المؤسسة أن تعلمه لأطفالها.

وهكذا تكون تربية الشعوب ... تربية من أجل مجتمع أفضل

* * *

رابعا: مجتمعات نامية

المجتمعات النامية هى مجتمعات فى طريقها إلى النمو ، وربما قطعت شوطا بسيطا ، وربما قطعت شوطا أطول . وهى صفة حلت محل صفات سابقة حملت معنى التخلف ، وتلك مجاملة دبلوماسية حتى لاتكون هناك حساسيات تمس شعور شعوب تلك المجتمعات .

وحديثنا هنا لايتعلق بمجتمع معين ، وإنما هى نظرة طائر من فوق لبعض هذه المجتمعات ... التى تنمو ، وهذه أمنية . كما أننا لن نتعرض لما يدور فيها من مجهودات تبذل فى مرحلة ما قبل المدرسة (باستثناء ما يحدث فى مصر) ، وإنما سوف ندلى ببعض الاقتراحات العامة التى نرجو أن تكون بناءة ، تساعد المخططين على رسم سياسات العمل بالمؤسسات السابقة للمدرسة الابتدائية .

نأخذ فى الاعتبار أمرا مهم جدا ، فالفرق بين المجتمعات التى تنمو والمجتمعات المتقدمة واسع عميق ، ويزداد اتساعا وعمقا ، فعلى الرغم من محاولات المجتمعات النامية للتقدم ، إلا أن المجتمعات المتقدمة تتقدم بدرجة أكبر ... إن سباق الزمن رهيب. ومحاولة الوثوب فوق مسافات الفروق أمر أكبر بكثير من الصعوبة ، ومع ذلك فالمحاولات ضرورية وسارية ، والإرادة كفيلة بأن تحاول تقريب المسافات . السلاح هو التربية .

وربما يمكن تقسيم المجتمعات النامية إلى قسمين رئيسيين :

(أ) مجتمعات يحدث فيها تغيير مستمر وبدرجة ملحوظة .

(ب) مجتمعات يحدث فيها التغيير ولكنه بدرجة بطيئة .

أما المجتمعات الأولى .. فإن المستقبل فيها يتطلب إعداد الأجيال الصاعدة إعدادا يواكب التغير المرتقب فى ذلك المستقبل ، وهذا غير الذى يحدث فى المجتمعات بطيئة التغيير ، والتى توصف أحيانا بأنها مجتمعات ثابتة ، وهذه المجتمعات

لاتتطلب إعدادا معينا للأجيال الصاعدة ، اللهم إلا إذا ارتأى المسئولون أن يبدأ التغيير السريع فى سنوات قادمة ، وهذه المجتمعات بطيئة التغيير توصف بأن غدها كيومها ، ويومها كأمسها .

وعن المجتمعات سريعة التطور ، ومجتمعنا واحد منها ، تجابه صعوبة بالغة ومعادلة صعبة .. إذ لكى يعد الفرد للمستقبل .. فيجب أن توفر له التربية فرص ممارسة أساليب التفكير ، والاحتكاك بمظاهر الثقافة التى ينتظر أن يعيش فيها فى المستقبل، والتى سيكون عضوا مسهما ومنتجا فيها . والصعوبة هنا تنشأ فى كيفية تحقيق التوازن والاستمرارية بين ما يعيشه الطفل فى حاضره ، وبين ما ينتظره فى مستقبله .

والخطر يدق نواقيس عالية الصوت إذ إن (التعليم) فى مرحلة ما قبل المدرسة وفى المدرسة الابتدائية بالصورة الراهنة يعتمد أساسا ، فى واقع ما يحدث فيها ، على الحفظ والاستظهار وتحصيل المعلومات من الكتب أو المدرسين ... مكمن الخطر قائم فى أن هذا الطفل عندما يكبر لايستطيع أن يفكر لنفسه ، لأنه لم يتعود ذلك فى طفولته وكان غيره يفكرون له فيقولون أو يكتبون وهو يحفظ على ظهر القلب . لذلك نرى ما نرى من اتجاهات تتحكم فى تفكير وسلوك كثيرين من الراشدين الذين يعملون فى المجتمع فهم ينفذون ما يلقى إليهم ، والذين يلقون التعليمات يأخذونها ممن هم أعلى منهم ... وهكذا وهكذا . إن فى هذا قتلا للابتكارية ، إذ يتحول الأفراد الراشدون إلى شبه آلات آدمية لا حول لها ولا قوة . ويتطور الأمر فى رغبة لأن يشعر الفرد الراشد العامل بكيانه وأن له سلطانا ونفوذا ، فيقوم بأعمال توصف بأنها معرقلة معطلة ، بل وإلى التسيب والمطالبة بالحقوق أكثر من أداء الواجبات ، إذ إن المطالبة بالحقوق فيها جانب ايجابى فهو يطلب ، وربما فى أداء الواجبات هو منفذ .

ربما كان هذا وغيره من سلوك العاملين فى بعض المجتمعات النامية هو واحد من الأسباب الرئيسية فى بطء التقدم . إن بناء البشر فى هذه المجتمعات فى حاجة إلى

عمليات ترميم وإصلاح وقد سبقت الإشارة إلى أن إعادة تربية الراشدين أمر شديد الصعوبة ، ولكنه ممكن بجهد جبار أو بمعجزة ممكنة الحدوث إذا توافرت القيادة والإرادة والعزم .

مشكلة المجتمعات النامية عامة تكمن فى بناء الإنسان . إن عملية هذا البناء يجب أن تبدأ فى بواكير الطفولة ، وهذا ما فعلته دولة مثل اليابان استسلمت فى نهاية الحرب العالمية الثانية وضنت أرضها بالموارد الطبيعية ، ومع ذلك فإنها اليوم على قمة قائمة الدول الصناعية ، ومنتجاتها تغزو أرجاء العالم كله . السر يكمن فى عبقرية تربية الطفل منذ بواكير طفولته ، وإعداده فى تنشئة سليمة جدا ، مسلحا بقيم واتجاهات وعادات يرتضيها المجتمع وتنمو معه فى مراحل عمره . والراشد مبتكر مخترع مطور ومحسن حتى عندما يقلد منتجا صناعيا فى دولة أخرى ، وهو يعمل للشعب اليابانى كله ، لا لنفسه .

إن هذه القيم والاتجاهات والعادات مفتقدة فى كثير من الدول النامية ، ولهذا فهى تحاول جاهدة أن تنمو . وحتى إذا حدث نمو فهو بطىء ، ولكى يسرع هذا النمو فيجب إعادة النظر جذريا فى تربية الفرد ، خاصة فى طفولته وبالذات تربية الأعماق .

* * *

إذن ، فإن من أولويات ما يجب أن تهتم به المجتمعات النامية :

(أ) الحرص على تهيئة بيئة تربوية سليمة لتنشئة طفل ما قبل المدرسة .

(ب) أن يكون إشراف الدولة على مؤسسات هذه التنشئة إشرافا فعالا أكيدا جادا ، حتى مع تعد دالهيئات التى تتولى إنشاء وتمويل هذه المؤسسات .

(جـ) وضع فلسفة لتخطيط المناهج والبرامج التى تقدم فى تلك المؤسسات التربوية .

(د) الاهتمام بالدرجة الأولى بإعداد المرشدين والمرشدات الذين سوف يتولون العمل

بهذه المؤسسات ، وألا يسمح مطلقا لغيرهم بالتعامل مع الأطفال فى تلك السنوات ذات الحساسية فى نمو الصغار عقليا واجتماعيا وخلقيا وجسميا . إذ إن كميات كبيرة من الخطورة والخطأ يمكن أن تقع ويصعب تصحيحها فى المستقبل .

وعند تخطيط المناهج والبرامج لمرحلة ما قبل المدرسة يجب أن تتضمن أنشطة متنوعة ومتعددة ، بحيث تتيح للطفل فرص :

(أ) الاستكشاف بنفسه ولنفسه بعض عناصر البيئة المحيطة به .

(ب) التجريب بالمعنى البسيط الذى يتناسب مع إدراكه وقدراته ، والأمر المهم هنا أن يترك الطفل دون التدخل المستمر من الكبار .

(جـ) تنمية رغبته فى حب الاستطلاع عندما يلقى أسئلة يريد معرفة إجابات عنها . فإذا أمكن أن تكون الإجابات ميسرة له لو جرب أو استكشف فيجب أن تتاح له الفرصة لذلك ... أسئلة أخرى تتطلب إجابات من الكبار ببساطة شديدة حتى يفهم الطفل المعنى المقصود .

(د) إدراك العلاقات بين الأسباب والنتائج (فى أبسط صورها) ، بين الأشياء بعضها والبعض الآخر ، فمثلا يصنف ويرتب الأشياء حسب أحجامها ، أو حسب مجموعات ألوانها ... أو حسب استخداماتها ... إلخ ، كبدايات لتكوين المدركات والمفاهيم .

(هـ) العمل الفردى والعمل الجماعى .

(و) الالتزام بأداء الواجبات وتحمل بعض المسئوليات البسيطة .

(ز) التعود على النظام والنظافة والترتيب ، فمثلا إذا أخذ شيئا يعيده إلى مكانه ويراعى دائما نظافة المكان ...

وغيرها من الفرص التى تؤدى إلى تكوين قيم واتجاهات مطلوبة ، ومخطط لها

بالتدريج وبالاستمرارية تحت الإشراف الحكيم ، مع ملاحظة أن كل هذا وغيره من أسس التنشئة الخلقية السليمة .

يتساءل جلبرت لاندشير Gilbert de Landsheere [1] أستاذ وعميد كلية التربية بجامعة ليبج ببلجيكا ... عما إذا كان التعميم الفورى لتربية طفل ما قبل المدرسة الابتدائية فى المجتمعات النامية أمرا ممكنا ؟ ويجيب قائلا : للأسف فإن الاجابة بالنفى ... لا لقصور فى الموارد فقط ولكن الأهم هو النقص البالغ فى القوى البشرية التى تستطيع أن تتعامل مع أطفال تلك المرحلة أى المدرسين والمدرسات المؤهلين . إذ إن الأمر يتطلب إعدادا تربويا ونفسيا معينا لهم حتى يمكنهم القيام بما يتوقع منهم من أعمال فى مؤسسات ما قبل المدرسة ، وهى أعمال تتطلب درجة من الفهم والوعى التربوى والنفسى لا على المستوى النظرى فقط ولكن أيضا بتدريبات وممارسات عملية مطلوبة .

ولأن غالبية المجتمعات النامية تمر فى مرحلة (ما قبل التصنيع) ، وهى بذلك تختلف عن المجتمعات المتقدمة التى تعيش مرحلة (التصنيع) ، أو مرحلة (ما بعد التصنيع) ... فإن الأمر يتطلب وقفة تفكير ، وقفة تثيرها ظروف فى تلك المجتمعات النامية وغالبيتها ارتضت توحيد التعليم فى المرحلة الأولى أى الابتدائية . ولاتستطيع بحكم قدراتها المادية أن تتيح لكل الأطفال تربية تسبق المرحلة الابتدائية . فلو أنها أعطت الفرص لعدد من الأطفال للالتحاق بمؤسسات قبل المدرسة الابتدائية فقد يؤدى هذا إلى عودة الازدواجية فى التعليم فى المرحلة الأولى ، ذلك لأن الذين يلتحقون بمؤسسات تسبق المدرسة الابتدائية قد يتفوقون على زملائهم ممن لم يلتحقوا بهذه المؤسسات ، ولكى لايوقف هذا التفوق فهم يحتاجون لنوعية خاصة من المدارس الابتدائية .

---

(1) Gilbert de Landsheere, Pre-School Education in Developing Countries, Prospects, Vol. VII. No. 14, 1977, pp. 506-511.

ويدعو أيضا إلى التفكير هذه الندرة البالغة فى القوى البشرية المؤهلة التى تعمل بمؤسسات ما قبل المدرسة ، وتستطيع أن تقوم بالعملية التربوية على أصولها . إذ إن الغالبية العظمى ، والعظمى جدا ، ممن يعملون بهذه المؤسسات لايحملون أية مؤهلات تربوية ، بل إن كثيرين منهم يستطيعون بالكاد القراءة والكتابة وأداء بعض العمليات الحسابية البسيطة .

إذن ، فالأمر يكاد يكون كلية فى أيد غير أمينة تربويا ، أو بمعنى أخر فإن مالدى أفراد تلك القوى البشرية من إمكانات رخيص جدا فى مضمار عمل تربوى لأطفال فى مرحلة حساسة من أعمارهم . إن الرخيص ينتج رخيصا .

والخيار أمام الدول النامية هنا صفر ، بمعنى أنه ليس أمامها إلا الاختيار الأوحد، وهو البعد عن الرخيص فى إعداد معلمى ومعلمات رياض الأطفال ، كما فعلت اليابان منذ مدة ليست قصيرة ... تتخرج المدرسة اليابانية التى ستعمل فى رياض الأطفال من الجامعة ، ولدينا ثقة كاملة فى هذا الاتجاه على أساس أن طبيب الأطفال يتخرج فى كلية الطب ، مثله مثل أى طبيب أمراض أخرى تصيب الغلمان والشباب والشيوخ من الذكور والإناث .

هذا هو الاختيار الأوحد ، أى أن على الدول النامية أن تعد المَدرسة والمُدرسة للعمل فى رياض الأطفال بعد دراسة أربع سنوات فى معهد عال أو جامعى ، ونظرا لأن عدد رياض الأطفال يزداد ، ويجب أن يزداد ، فإن الأمر يتطلب - فى حزم وعزم - إعداد عشرات الآلاف من هؤلاء المؤهلين للعمل فى تلك الدور . هذا ، إذا أردنا فعلا أن تكون هناك تربية حقة فى تلك الدور ، بعيدة عن المظهرية وسد الفراغات لإعطاء إحصاءات وبيانات ... ونتيجة كل هذا ... لاتربية .

البرازيل وكينيا

فى سبتمبر ١٩٧٧ ظهر تقرير عن أطفال الصف الأول الابتدائى فى البرازيل، نشرته مجلة فيجا "Veja" [1] ... بناء عن إحصاءات وزارة التربية البرازيلية .. فإن نصف عدد أطفال الصف الأول الابتدائى (٦ر٤ مليون طفل)، لن يقدروا على اجتياز الامتحان الذى يعقد فى نهاية العام ، أى لن ينقلوا إلى الصف الثانى .

وتقع البرازيل فى أمريكا الجنوبية ، ممتدة فى اتساع بين المحيطين الأطلسى والهادى ، وتغطيها مساحات شاسعة من الغابات التى تحوى أسرارا كثيرة ، بل إن بعض مناطقها لم تطأها أقدام البشر بعد ، بنيت عاصمتها الجديدة برازيليا ، وعلى طرز حديثة . ودائما تذكر البرازيل مقترنة بالقهوة ، ومن الطريف أن واحدا كان مقدرا له أن يذهب ويعيش فترة فى البرازيل فتعلم اللغة الأسبانية التى تتكلمها أمريكا اللاتينية، وكانت دهشته بالغة عندما وصل ووجد أن البرازيليين يتكلمون اللغة البرتغالية .

وعود إلى التقرير السابق ذكره ... كثيرون من الأطفال الذين يرسبون وعليهم أن يجلسوا مرة أخرى فى الصف الأول لايشعرون بالسعادة فى هذه الإعادة ، بل أن نسبة مئوية عالية منهم يتركون التعليم نهائيا بعد سنتين أو ثلاث سنوات . ويخلص التقرير إلى أن الموقف المؤسف الناتج عن ارتفاع نسبة المتسربين من التعليم الابتدائى، يؤدى إلى زيادة الأعباء المالية على الدولة ، خاصة إن صانعى السياسة التعليمية يحاولون التوسع فى مدارس تلك المرحلة التعليمية .

---

(1) Maria Carmen Capelo Feijo, Early Childhood Education in Brazil : Trends and Issues, in Preventing School Failure, Proceedings of a Workshop Research Held in Bogota. Colombia, 26-29 May 1981, IDBC, Ottawa, Canada, 1983. pp. 52-57.

ويجدر بنا - قبل التعرض لمرحلة ما قبل المدرسة فى البرازيل - أن نتعرف على النظام التعليمى (السليم) بعد أن اتضحت لنا حساسية الموقف فى التعليم الابتدائى.

تتمشى التشريعات التربوية فى البرازيل مع النظام الإدارى فى الدولة ، فتنقسم إلى مستويات ثلاثة ... مستوى الحكومة الفيدرالية ، ومستوى الولاية ، ثم مستوى المحليات . يعطى الدستور الحكومة الفيدرالية مسئولية رسم السياسات التعليمية والقواعد العامة والتوجيهات على مستوى الدولة ، وتضمن بذلك سياسة تعليمية موحدة تتضح فيها الأهداف التربوية ، ثم تتولى كل ولاية تنظيم سياستها التعليمية محليا .

يتكون السلم التعليمى من :

(أ) التعليم الأساسى، ويضم ثمانى سنوات دراسية من ١-٨ ، ويبدأ فى سن السابعة.

(د) التعليم الثانوى ، ويضم ثلاث أو أربع سنوات حسب نوع الدراسة ، ويهدف إلى إعداد الخريجين للمهن والوظائف المتوسطة أو التعليم العالى .

(جـ) التعليم الجامعى وتختلف مدته تبعا للتخصص .

(د) الدراسات العليا .

ومن الملاحظ أن هذا السلم التعليمى لايتضمن التربية قبل المدرسة ... ولا يعنى ذلك عدم وجود مجهودات لتوفير هذه التربية ... فهى موجودة ولكنها لاتعتبر من الأولويات . على الرغم من الأرقام المذهلة التى تبين أن عدد الأطفال فى سن السابعة فى سنة ١٩٧٣ بلغ ٢ر٨ مليون ، ومع ذلك فنتيجة لرسوب الأطفال فى الصف الأول .. فإن عدد المقيدين بهذا الصف يبلغ ٦ر٧ مليون ، أى أن الذين رسبوا السنة بلغ ٣ر٩ مليون طفل ، وهذه الزيادة الكبيرة هى المتسببة فى كثرة الأعباء المالية التى تنفقها الدولة على التعليم فى أول سنة من سنى التعليم الأساسى .

ويلوح إذن أنه بدلا من سياسة التوسع فى التعليم الأساسى ، يكون هناك اهتمام أكبر بالتربية قبل المدرسة حتى يهيأ الأطفال لتقبل التعليم فى الصف الأول .

وهناك اهتمام متواضع بتربية الطفل قبل الصف الأول ، ويظهر هذا التواضع فى الأرقام التالية :

يبلغ عدد الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤-٦ سنوات ٩٫٧٤٦٫٧١٢ طفلا. يلتحق منهم ٦٨٦٫٣٩٠ فقط بمؤسسات ما قبل المدرسة ، أى بنسبة ٧٫٠٤٪ ، ومن هؤلاء يلتحق ١٫٤١٪ بمؤسسات خاصة . ويمكن استنتاج أن الفرص غير متاحة أمام الأطفال من بيئات اقتصادية فقيرة للالتحاق بمؤسسات تربوية قبل الصف الأول .

وتواجه الحكومة البرازيلية تحديا واضح المعالم مرتبطا بالسياسة التعليمية ، إذ من المعلوم أهمية مرحلة ما قبل المدرسة ، ولا اختلاف عند الساسة التربويين البرازيليين فى ذلك ، ولكن ظروفا قاهرة بعضها كمى وبعضها نوعى ، تحول دون تحقيق تربية لكل أطفال ما قبل المدرسة . ومع ذلك .. فإن هناك بوادر تفاؤلية ، منها أن الحكومة أعطت الأولوية خلال سنوات الثمانينيات لمرحلة ما قبل المدرسة ، وبهذا لم يعد ينظر إلى التربية فى تلك المرحلة على أنها رفاهية قاصرة على أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا . ومن المحاولات الجادة فكرة ربط التنمية الاجتماعية مع التربية قبل المدرسة . وعلى سبيل المثال ما يحدث اليوم فى فورتاليزا ، وبأحد أحيائها الفقيرة ، حيث تشترك السلطات الجامعية مع السلطات التربوية فى تنفيذ برنامج ، يهدف إلى ربط الخدمات الصحية والتربوية والثقافية وتنظيم الأسرة فى كل متكامل لتحقيق رفاهية ومصلحة المجتمع . الأسرة هى الغاية المستهدفة فى هذا البرنامج ، والاهتمام موجه إلى الأطفال من الميلاد إلى سن السادسة .

ولكن هذه المحاولة ومثيلاتها مازالت فى خطواتها التنفيذية الأولى ، ويتطلب الأمر إجراء بحوث علمية لتقويمها والاستفادة من نتائجها . كما أن هناك حاجة لمزيد من البحوث للتعرف على أسباب الفشل فى المرحلة الابتدائية (الصف الأول من التعليم الأساسى) ، والربط بين الالتحاق بمؤسسات قبل المدرسة واستجابتهم للتعليم فى المراحل التالية .

وقد بدأ فريق من الدارسين بحثا عن أثر التربية قبل المدرسة على نجاح الأطفال فى المدرسة فيما بعد . بدأت الدراسة سنة ١٩٧٩ ، وتهدف إلى تتبع ثلاث مجموعات من الأطفال لمقارنة نتائج من هيئوا للصف الأول بحضورهم مؤسسات التعليم قبل المدرسة بمن لم يلتحقوا بتلك المؤسسات . وإلى وقت كتابة هذا الكتاب (صيف ١٩٨٣) لم تظهر النتائج النهائية لهذه الدراسة بعد ، ولكن ظهرت بعض النتائج الأولية التى تشير إلى :

- تفوق الأطفال الذين حضروا سنة برياض الأطفال عن غيرهم ممن لم يحضروا فى أدائهم الأكاديمى .

- كما ظهر تفوق المجموعة التى حضرت سنة برياض الأطفال ، وكذلك المجموعة التى حضرت دورة سريعة للتهيئة للدراسة على المجموعة التى لم تحضر ، وذلك فى القدرات اللغوية (مثل التعرف على أشكال الحروف - فهم المعانى عن طريق القراءة أو السمع - القدرة على التعبير ... إلخ) .

وهناك نقطة تحذير من التأثر المبالغ فيه بهذه النتائج التى خرجت من تجارب علمية وبناء على برامج تربوية أحسن تخطيطها واختيار محتواها وطرق تنفيذها ... وقد لاتصل إلى نفس النتائج بالنسبة لأطفال حضروا البرامج التقليدية فى مؤسسات قبل المدرسة بوضعها الراهن ... حيث إن هذه المؤسسات تركز على آليات التعلم ، بدلا من الاهتمام بعمليات الفهم والاستيعاب

ومن مؤشرات الاهتمام بتربية الأطفال قبل المدرسة تكوين اللجان لإعادة تنظيم البرامج التليفزيونية التى توجه للأطفال ، سواء من خلال المحطات الحكومية أو التجارية. وقد قطعت البرازيل شوطا مرموقا وتعتبر من الدول الرائدة فى هذا السبيل[١] .

* * *

(هارامبى) كلمة باللغة السواحيلية تعنى الحرية ، وهى الصيحة التى كان يطلقها جومو كينياتا الرئيس السابق لكينيا عندما يواجه الجماهير ، رافعا يديه إلى أعلى ، ثم تزأر هذه الجماهير مرددة الكلمة الساحرة . ثم يهز (المنشة) التى جمعت شعرا كثيفا من حيوانات تعرفها الأدغال . والحيوانات كثيرة وهى مختلفة ولبعضها امتيازات على البعض الآخر ، ففى الغابة طبقية ... وفى المجتمع الكينى طبقية فى التعليم .

نالت كينيا الاستقلال منذ أقل من ربع قرن ، ولكن بقايا الاستعمار موجودة وإن كانت فى تلاشٍ تدريجى ، وأرض كينيا خضراء ، وسماؤها تمطر طوال العام ، وبعض المطر يأتى إلينا فى بيوتنا ، إذ هى تحد غربا ببحيرة فيكتوريا التى تستقبل بعض المطر ، وتحد شرقا بالمحيط الهندى الذى له قصص عديدة مع ممباسا الميناء . ويسمع الزائر لهذا الميناء اللغة العربية ذات لهجة أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما يستمع إلى لغات أخرى أهمها اللغة السواحيلية التى تأثرت باللغة العربية ، إذ إن ربع مفرداتها من اللغة العربية .

---

(1) Samuel Pfromm Netto and Arrigo L. Angelini, Impact of Brazilian Television on Children and Education, Educational Studies and Documents, No 40 UNESCO, 1981, pp. 43-48.

الزائر لكينيا يمكنه أن يقف على خط أبيض يعبر طريقا عريضا ، ومكتوب أن هذا هو خط الاستواء ، كما يمكن للواحد أن تكون قدمه اليمنى فى نصف الكرة الشمالى، واليسرى فى نصف الكرة الجنوبى. وخط الاستواء - كما نعلم فى الجغرافيا- خط وهمى كمدارى السرطان والجدى . وعلى الربى والتلال وسفوح الجبال تنتشر بكثرة مزارع الشاى وبقلّة نسبية مزارع البن ، كما تنتشر فى ربوع كينيا الحيوانات ويضطر قائد السيارة أن يتوقف أحيانا حتى يعبر الطريق قطيع من الزراف ، أو يتطلع إلى البعد يتفرج على مجموعة من الفيلة ، ولكنه لايقترب منها خوفا من غضبها أو غضب واحد منها فيهز أذنيه الكبيرتين ، ويندفع كالصاروخ على الرغم من ثقل وزنه وتصبح السيارة بمن فيها كلعبة من صفيح . والقرود والنسانيس كثيرة جدا ، وهى تستقبل الزائرين فى حدائق مفتوحة بالجلوس على مقدمة وسطح السيارة بعيون مفتوحة ، ويظهر أنها تحب أن تتطلع على الركاب ، وربما فى قرارة أنفسها لايعجبها شكلهم ولا أزياؤهم ، ولكن لابأس من تقبل ما يقدم إليها من (الفول السودانى) . ومعظم الكينيين يستطيعون التفاهم باللغة الإنجليزية . أما عن السكان فهم من الجنس الزنجى ، ينقسمون إلى قبائل عديدة ولهم عادات متفاوتة ، وبينهم طبقية واضحة المعالم . وقد دخل الإسلام كينيا مع التجار ، وأتى المبشرون الأوربيون ومعهم المسيحية ، وعدد المسلمين والمسيحيين متواضع بالنسبة لعدد السكان .

بدأ اهتمام سكان كينيا الجاد بالتعليم بعد حصولهم على الاستقلال ، وصارت هناك مدارس متنوعة وجامعة ومعاهد عليا بكثرة لم تكن معهودة . وتلقت كينيا معونات من دول أجنبية على هيئة مشروعات تعليمية ، ومن أمثال تلك الدول الدانمارك والسويد وهولندا ... إلخ .

وقد حدث تطور فى المناهج وطرق التعليم بالمدارس الكينية المندرجة تحت السلم التعليمى، كما حدث تطورواضح فى تعليم ما قبل المدرسة . ومن الجدير بالذكر أن أول

روضة أطفال أنشئت بكينيا كانت عام ١٩٤٢ فى نيروبى العاصمة ، وكانت قاصرة على أبناء المستعمرين البريطانيين . ثم انتشر عدد هذه الرياض عندما بدأ السكان الأفارقة مع الجاليات الآسيوية فى فتح مدارس مماثلة لأطفالهم .

وقد لفت نظر المؤلفين - خلال سنوات وجودهما بكينيا - الانتشار الواسع لهذه الرياض فى المناطق الريفية [١] ، كما أن معظم تلك المؤسسات كانت تقام بالجهود الذاتية ، ونلاحظ اختلاف المستويات بين هذه المؤسسات تبعا لميزانية كل مؤسسة . وكما هو متوقع فإن الرياض التى يلتحق بها أبناء الجاليات الأجنبية من البيض أو الأغنياء من الكينيين وغيرهم ، كانت تتطلب مصروفات باهظة تصل إلى أكثر من مائتى ضعف ما تطلبه رياض الأطفال المتواضعة والموجودة فى الأحياء الفقيرة فى المدن وفى المناطق الريفية عادة .

إذن.. فالطبقية فى مؤسسات ما قبل المدرسة موجودة ، والعامل الاقتصادى هو الفيصل، فمن يدفع أكثر يتلقى تربية أفضل بمعنى أن يوجد الطفل فى مبنى مناسب، ومجهز بالأدوات والأجهزة لهذه المرحلة ، وتشرف على الأطفال متخصصات مؤهلات تأهيلا تربويا ونفسيا ، يكفل للعملية التربوية فى تلك المرحلة الجدية والنجاح .

وقد يدور فى ذهن القارىء سؤال مهم ، أسس على ما لفت نظر المؤلفين أثناء وجودهما فى كينيا وهو انتشار رياض الأطفال فى المناطق الريفية وهى فقيرة . وهذا سؤال ذكى ، وأذكى منه ما فكر فيه الكينيون أنفسهم ، فإن سوق العمل بهذه الدولة

---

(١) كنت رئيسة مشروع لمنظمة الأغذية والزراعة FAO لإنشاء قسم بكلية إيجرتون الزراعية بمدينة نجورو ، التى تبعد ٢٢٠ كليو مترا عن نيروبى ، وذلك لمدة حوالى ثلاث سنوات ، وكان من أهداف هذا القسم تخريج متخصصات للعمل برياض الأطفال . وقد تم وضع الخطة المتكاملة لهذا الإعداد ، وطبقت الخطة فى بعض الدول الأفريقية وغيرها .

فى شرق أفريقيا يتطلب اشتراطات معينة لمن يتولون وظائف ذات مرتبات مجزية . وترتبط هذه الوظائف بالشهادات أكثر من أى شىء . وقد وجد الكينيون أن أبناء غير الكينيين ، أو أبناء الكينيين الأغنياء الذين يلتحقون برياض الأطفال يتقدمون فى دراستهم بالمدارس الابتدائية وما بعدها بدرجة ملحوظة ، ثم يلتحق بعضهم بدراسات أعلى . وهؤلاء هم الذين يقبضون مرتبات عالية ، ويرتفع مستواهم الاقتصادى ومكانتهم الاجتماعية .

سئل بعض أولياء الأمور من الكينيين عن دوافع ارسال أطفالهم إلى رياض الأطفال ... عينة من الإجابات .

- التقدم يتطلب تعليما ... فى الماضى كنا نعتمد على الزراعة والرعى ... اليوم هناك وظائف ... الوظائف تتطلب موظفين دخلوا مدارس وتعلموا بصورة جيدة ... أرسل طفلى إلى روضة الأطفال حتى ينجح فى دراسته فى المراحل التالية .
- ارسل ابنى سليم إلى روضة الأطفال ، لكى ينجح ويتفوق فى التعليم فيما بعد ، ثم يتقلد وظيفة محترمة تفيده وتفيدنى أنا أيضا (هى أم سليم التى أعطت هذه الاجابة) ...
- أرسل ابنتى إلى روضة الأطفال لتتفتح عيناها على التعليم إذ إن روضة الأطفال هى بداية التربية (تقصد التعليم) .
- لم أرسل ابنى الأول إلى روضة الأطفال ففشل فى دراسته فى الصف الأول من المدرسة الابتدائية وترك الدراسة ... ولهذا أرسل طفلى الثانى لينجح فى المدرسة الابتدائية .
- إن ارسل طفلى إلى روضة الأطفال لن يصبح غريبا عن الجو المدرسى عندما يدخل الصف الأول الابتدائى لأنه أعد جيدا لهذا الموقف ... لن يكون (عبيطا) بين زملائه ... كما أن تركه فى البيت سيؤخر نموه ...

وتلخص ردود أو إجابات أولياء الأمور عن التساؤل الخاص بدوافع إرسال أطفالهم لمؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية فى أنهم يهدفون أساسا إلى تربية أطفالهم ، لا مجرد تواجدهم فى مكان ما تحت رعاية ما ... فالهدف الرئيسى هو تربيتهم ، هذا مع الاعتراف بوجود دوافع أخرى مثل خروج الأمهات للعمل فى الأسواق والمكاتب وو ... إلخ .

جميل جدا أن يحدث هذا الحماس الواضح فى دولة نامية .

وإذا كانت هذه هى دوافع أولياء الأمور فلنتوقف لحظة ، نعرض فيها أهداف التربية قبل المدرسة كما حددتها خطة التنمية الكينية (١٩٧٩-١٩٨٣) [1] . «تهدف هذه المراكز (ويقصد بها هنا رياض الأطفال) إلى مساعدة الأطفال على النمو الاجتماعى ، والعقلى ، والانفعالى ، والجسمى ، والثقافى . كما تقدم بعض المبادىء المهيئة للتعليم . وتمكن هذه المؤسسات الأمهات العاملات من المشاركة فى الأعمال الإنتاجية خارج البيت» .

وتتعاون عدة وزارات وهيئات فى إنشاء مؤسسات تعليم الأطفال قبل المدرسة وفى الإشراف عليها ... وهى : الإسكان والخدمات الاجتماعية ، الداخلية ، الصحة ، التربية ، الشئون الاجتماعية . وتهتم وزارة الإسكان والخدمات الاجتماعية بالدرجة الأولى بالمبانى والمرافق لضمان سلامة الأطفال ، وتهتم وزارة الصحة بإجراء الكشف الدورى على الأطفال لمتابعتهم صحيا ، ولو أن هذه المتابعة ليست سهلة نظرا لاتساع رقعة الدولة وصعوبة المواصلات ، خاصة فى المناطق الريفية النائية . وتشترك وزارتا

---

(1) O.N. Gakuru. Education and Social Class Formation : The Case of Pre-School Education in Kenya, in Preventing School Failure, Op. Cit, P. 86

التربية والداخلية مع الهيئات المحلية فى تنظيم وتنفيذ برامج ودورات تدريبية لإعداد مدرسات رياض الأطفال .

وهذا اتجاه حميد إذ تتعاون مجموعة وزارات وهيئات فى تخطيط متكامل لإعداد نسق محدد لتعليم الأطفال قبل المدرسة .

* * *

تتميز جمهورية مصر العربية بتاريخ طويل فى التربية والتعليم النظامى يمتد إلى أكثر من خمسة آلاف سنة . وكانت هناك عبر التاريخ أنظمة تعليمية ومناهج محددة وتدرج فى مراحل التعليم ... كما كانت هناك فترات ازدهار وفترات فيها اضمحلال ، وربما كانت مصر من أقدم الدول النامية التى كان لها سلم تعليمى واضح المعالم ، بل تتميز مصر بأن بها أقدم جامعة فى العالم ممتدة فى عملها دون انقطاع ، مسهمة فى نشر التعاليم الإسلامية وصنوف المعرفة بسخاء وفير . إنه الأزهر الشريف.

وقد عرفت مصر دور الحضانة ورياض الأطفال مبكرا فى هذا القرن حيث أنشئت أول روضة أطفال عام ١٩١٨ ، وكانت بالإسكندرية وخصصت للأطفال الذكور ، على أن البنات لم يحرمن من فرصة شابهت إلى حد ما نظام روضة الأطفال الذكور ، إذ كانت الفرقتان الأوليان بالمدارس الابتدائية للبنات تتبع نظاما مشابها لما كان متبعا بروضة الأطفال . وبعد إنشاء روضة البنين بالإسكندرية بسنة واحدة أنشئت روضة للبنات بالقاهرة فى حى جاردن سيتى وسميت روضة قصر الدوبارة . ومع نمو الوعى بأهمية رياض الأطفال .. ازداد العدد تدريجيا حتى بلغ عام ١٩٤٧/١٩٤٦ - ٣٢ روضة مستقلة و ١٧ روضة ملحقة .

وفى عام ١٩٥١ .. أصبحت رياض الأطفال جزءا من السلم التعليمى بعد صدور قانون بمجانية التعليم فيها ... ثم وحد التعليم فى المرحلة الأولى عام ١٩٥٣

وصفيت رياض الأطفال ... ثم وثبت فكرة الحضانات ورياض الأطفال إلى السطح فى حماس خلال السنوات الأخيرة ، وافتتح عدد كبير من مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية بصورة تختلف عما عهدته مصر سابقا من حيث :

(أ) تعدد الهيئات التى تشرف على هذه المؤسسات فمنها وزارة التربية والتعليم ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، وهيئات خاصة .

(ب) إطلاق أسماء على تلك المؤسسات ، لم تكن معروفة فى الماضى مثل «المدارس التجريبية الرسمية» ، و «مدارس اللغات» ، و «مدارس المناهج العربية» ...

(جـ) الخلط فى سياسات المناهج التى تتبع فى تلك المؤسسات ، وربما كان هذا نابعا من عدم وضوح الأهداف عند بعضهم .

(د) نتيجة للتسرع الحماسى فى إنشاء أغلبية هذه المؤسسات .. فإن القوى البشرية العاملة بها لم ترق إلى المستوى العلمى والتربوى المطلوبين ، ويتضح هذا من مقارنة مدرسات رياض الأطفال القديمة بما هو موجود الآن ، حيث كان هناك مصدران لإعداد المدرسات التربويات هما :

- قسم رياض الأطفال بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك .
- القسم الإضافى بمدرسة معلمات شبرا .

وكان هذان المصدران يكفيان رياض الأطفال .

وجدير بالذكر أنه أرسلت بعثات من الاناث فى مطلع هذا القرن إلى إنجلترا للدراسة والتدريب على العمل برياض الأطفال . أما اليوم فتوجد ثلاثة مصادر لإعداد المتخصصين فى رياض الأطفال ، وهى موجودة بكلية البنات جامعة عين شمس ، وكلية التربية بجامعة طنطا ، وكلية التربية بالزمالك بجامعة حلوان . كما توجد أقسام ببعض دور المعلمات العامة للحضانة ورياض الأطفال .

وكل هذا طيب وجميل ولكن الأمر يتطلب آلاف الآلاف من المتخصصين والمتخصصات فى مرحلة ما قبل المدرسة ، وهذا يستدعى إنشاء أقسام أخرى بكليات التربية ، وربما يتفتق التفكير عن وسائل أخرى لإعداد المتخصصين للعمل بتلك المؤسسات التى تزداد أعدادها باضطراد ...

وعلى سبيل المثال نعطى الأرقام التالية وفقا لإحصاء ١٩٨٣ ، الخاصة بمؤسسات ما قبل المدرسة التابعة لوزارة التعليم والبحث العلمى :

بلغ عدد المدارس التجريبية الرسمية ٢٧ مدرسة ، بها ١٤١ فصلا تضم ٤٨٧٦ طفلا .

- بلغ عدد مدارس اللغات وأقسامها ٣٢ مدرسة ، و ٩١ قسما بها ٦٧٣ فصلا ، تضم ٢٦٨٦٣ طفلا .
- بلغ عدد مدارس المناهج العربية وأقسامها ٦٦ مدرسة ، و ٢٦٠ قسما بها ١٠٩١ فصلا ، وتضم ٥٠٣٤٦ طفلا [١] .

أما عن المؤسسات التى تخضع لوزارة الشئون الاجتماعية .. فقد بلغت وفقا لإحصاء عام ١٩٨٣ ، ٢٥٥٠ دار حضانة تضم ١٢٠٠٠٠ طفل ، علما بأن هذه الدور تستقبل الأطفال الرضع حتى سن عامين ، ومن هذا السن حتى سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية وهو ست سنوات .

وكان قد صدر القانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٧٧ ، الخاص بدور الحضانة ، وينص الباب الأول منه على أن دار الحضانة هى «كل مكان مناسب يخصص لرعاية الأطفال الذين لم يبلغوا سن السادسة» ... وأن أهداف دور الحضانة تتلخص فيما يلى :

---

(١) وزارة التربية والتعليم ، الإدارة العامة للتعليم الخاص ، إحصاء التعليم الخاص ما قبل الابتدائى (الحضانات) ١٩٨٣ .

١- رعاية الأطفال اجتماعيا وصحيا ، وتنمية مواهبهم وقدراتهم ، وتهيئتهم بدنيا وثقافيا ونفسيا تهيئة سليمة للمرحلة التعليمية الأولى بما يتفق مع أهداف المجتمع وقيمه الدينية .

٢- نشر التوعية بين أسر الأطفال لتنشئتهم تنشئة سليمة .

٣- تقوية الروابط بين الدار وأسر الأطفال .

وقد نص هذا القانون على أن «تختص وزارة الشئون الاجتماعية بالإشراف والرقابة على دور الحضانة» ، على أن تنشأ لجنة عليا لدور الحضانة تتكون من :

١- وزير الشئون الاجتماعية أو من ينيبه رئيسا

٢- وكيل وزارة الشئون الاجتماعية للرعاية الاجتماعية .

٣- وكيل وزارة الشئون الاجتماعية للشئون المالية والإدارية .

٤- ممثل لوزارة الصحة .

٥- ممثل لوزارة التربية والتعليم .

٦- ممثل لوزارة الأوقاف

٧- ستة يمثلون دور الحضانة ، واثنين من المهتمين بشئون الطفولة .

٨- ممثل للاتحاد العام للعمال .

٩- مدير عام الإدارة العامة للأسرة والطفولة بوزارة الشئون الاجتماعية .

١٠- مدير إدارة الشئون القانونية بوزارة الشئون الاجتماعية .

١١- مدير عام الإدارة العامة للجمعيات والاتحادات بوزارة الشئون الاجتماعية .

وتختص هذه اللجنة العليا برسم السياسة العامة لدور الحضانة ومتابعة تنفيذها.

أما على مستوى كل دار حضانة [١] فتشكل لجنة للإشراف تضم :

« ١- صاحب الدار أو عضوين من أعضاء مجلس إدارة الجمعية التى تتبعها الدار . رئيسا [٢]

٢- مدير الدار مقررا

٣- طبيب الدار

٤- عضو يمثل أسر الأطفال .

٥- من ترى اللجنة الاستعانة به من المهتمين بمجال الطفولة والبيئة » .

ومن بين اختصاصات هذه اللجنة :

١- وضع البرامج ورسم المطلوب عمله بالدار ومتابعة التنفيذ .

٢- البت فى طلبات الالتحاق بالدار .

٣- دراسة الأبحاث الاجتماعية المقدمة ، وتقرير ما تراه فى كل حالة من حيث الإعفاء الكلى أو الجزئى من قيمة الاشتراك .

٤- اقتراح تعيين العاملين بالدار .....

..... إلخ [٣] .

---

(١) ونذكر أن تعبير «دار الحضانة» هنا يشير إلى كل مؤسسات ما قبل المدرسة ، دون التفرقة بين دور الحضانة ورياض الأطفال .

(٢) نرجو ملاحظة الموقع المهم لصاحب الدار وما يعنيه .

(٣) قرار وزير الشئون الاجتماعية رقم ٢٠٧ بتاريخ ١٩٧٨/٤/٢٦ (اللائحة النموذجية لدار الحضانة) .

ويتشكل الجهاز الوظيفى فى الدار من :

١- المدير ويحمل مؤهلا عاليا أو متوسطا فى مجال الخدمة الاجتماعية فى ميدان الطفولة ، مدة لاتقل عن خمس سنوات ، مع حصوله على دورة تدريبية فى مجال الطفولة .

٢- أخصائى اجتماعى للقيام بالبحوث الاجتماعية للأطفال ، والتعرف على المشكلات الاجتماعية التى تواجه أسرهم ومعاونتها فى ايجاد الحل ، والعمل على ربط الدار بالبيئة وبالمجتمع .

٣- أخصائى فنى ويختص بدراسة سلوك الأطفال ودراسة الحالات غير الطبيعية والإرشاد والتوجيه النفسى للأطفال .

٤- المشرفة وتحمل مؤهلا متوسطا فى مجال الخدمة الاجتماعية ، أو أى مؤهل مناسب فى نفس المستوى أو غيره من مجال الطفولة ، مدة لاتقل عن ثلاث سنوات مع حصولها على دورة تدريبية فى مجال الطفولة ، ويشترط فيها الاستعداد للتعامل مع الأطفال . وتختص المشرفة بإعداد البرنامج اليومى للجماعة التى تشرف عليها وتنفيذه ، وملاحظة سلوك الجماعة وأفرادها أثناء مزاولة الأنشطة المختلفة ، والعمل على توجيه الأطفال لتنمية مهاراتهم ومواهبهم الطبيعية والمكتسبة ، وتشجيع الأطفال على اتباع الأساليب والعادات السليمة ، والإقلاع عن العادات السيئة ، وغرس القيم الروحية والوطنية فى نفوس الأطفال ، وإعداد وتنظيم احتفالات الدار فى المناسبات القومية والدينية وأعياد ميلاد الأطفال ...

٥- الطبيب وهو يقدم الخدمات الطبية للأطفال ، والإشراف على الجوانب الصحية بالدار .

٦- الممرضة وتنفذ تعليمات الطبيب ، وتشرف على نظافة الأطفال والعاملين المحتكين احتكاكا مباشرا بهم ، والتعاون مع المشرفة على تعويد الأطفال الأساليب الصحية

في جميع تصرفاتهم مثل طريقة الجلوس الصحية وطريقة المشى السليم .. إلخ . كما تشترك فى توعية أولياء الأمور بالنواحى الصحية .

ويعاونهم هؤلاء بعض الإداريين ، ومن يقدمون الخدمات المعاونة مثل الطباخ والسكرتير وأمين المخزن ... إلخ .

وتنص المادة ١٢ من اللائحة النموذجية لدار الحضانة [١] على أن الرعاية الترفيهية للأطفال هى أبرز مهام دار الحضانة . وعن طريقها تتاح الفرص للأطفال للتمتع بأوقاتهم داخلها بعيدا عن الشعور بالحرمان الأسرى ، لهذا يجب أن تتوافر بدار الحضانة الوسائل والإمكانيات التالية :

١- الألعاب الخارجية بأنواعها والزلاقات - المراجيح - الكرة .... إلخ .

٢- الألعاب الداخلية (المدادات - المكعبات - العربات - المجلات - المصورة .. إلخ) والتى تتيح الفرصة لنمو الإدراك الحسى ، والنفسى ، والعقلى والبدنى إلى جانب الشعور بالمتعة .

٣- الأغانى والأناشيد .

٤- الحفلات والرحلات .

٥- توفير الوقت الكافى لراحة الأطفال ونومهم ، حتى يمكنهم معاودة نشاطهم البدنى والعقلى دون إرهاق .

وتختص المادة ١٣ من نفس اللائحة بالنواحى التربوية ، ويراعى فى هذا الجانب مايلى :

١- إتاحة حرية الحركة للأطفال خارج الفصول .

---

(١) المرجع السابق .

٢- عدم التركيز على تعليم مهارات الأطفال من قراءة وكتابة وحساب فى السنة الأولى للطفل ... ويمكن البدء بها من سن الخامسة ، على أن تقوم بهذا العمل مشرفة تربوية أو تحت إشراف تربوى .

٣- التركيز على إكساب الطفل القيم والفضائل والعادات الطيبة مثل الصدق - الأمانة - النظافة - احترام ملكية غيره والتعاون وغيرها من الأنماط السلوكية المستهدفة التى تخلق منه مواطنا صالحا .

٤- الإكثار من استخدام وسائل الإيضاح ، والنماذج المجسمة فى الأنشطة التعليمية بالدار .

٥- استخدام الرسم كوسيلة من وسائل التعبير للطفل عن معلوماته واهتماماته وعلاقاته .

٦- استخدام البرامج الملائمة لأعمار الأطفال ، ووضع البرنامج المتنوع المتوازن الذى يساعد على النمو السليم للأطفال واكتشاف قدراتهم ومهاراتهم ، والعمل على تنميتها .

٧- إكساب الطفل خبرات جديدة من خارج الدار عن طريق تنظيم الرحلات لزيارة الأماكن المهمة القريبة ، مثل المتاحف والمعارض والحدائق وما عليها .

٨- أن يسلك العاملون بالدار سلوكا مثاليا باعتبارهم قدوة للأطفال ، ويقومون بمحاكاتهم وتقليدهم .

٩- توفير العدد الكافى من القصص والمجلات المصورة المناسبة لأعمار الأطفال الملتحقين بالدار .

كما تتضمن اللائحة الاشتراطات الخاصة بالمبنى المناسب ، والمرافق ، والأثاثات ، والأدوات اللازمة لتنفيذ البرامج والتى تساعد على تحقيق أهداف دور الحضانة .

* * *

من السهل اليسير أن نكتب على الورق ، أو أن نصرح لوسائل الإعلام ... وباليت ما يكتب أو يصرح به يكون موضع التنفيذ .

إن كل ما قيل سهل التنفيذ لمؤسسة لما قبل المدرسة تتكلف عشرات الألوف من الجنيهات وتخدم الخاصة من الأطفال ، تاركة الملايين تتأوه فى غضب لما هم محرومون منه، أى ذلك الذى يتمتع به خاصة الخاصة ... وهنا تبكى اشتراكية التعليم .

سهل جدا ، حتى على مستوى التعليم العام أن تدون أهداف وسياسات وبرامج نباهى بها ، وعند التنفيذ تكون قصة أخرى ، إذ أن التنفيذ له مواصفات واشتراطات ، ربما لظروفنا الاقتصادية يكون هناك بعض التعثر .

ألا يكفينا فخرا أن فى مصر مفكرين أصدروا هذا الاتجاهات والتوجيهات الخاصة بتربية أطفال ما قبل المدرسة ، وهى ترقى إلى أرقى المستويات العالمية فى الدول المتقدمة . ولكن هل ما يحدث فى الواقع مواكب لهذه الأقوال ؟ نقول إن فى بعض المؤسسات(الخاصة) هذا حادث .

ولكن هل نحن بصدد تربية للخاصة ؟ .... وأين عامة أفراد الشعب ؟ الأمل والطموح فى أنه ينال أطفال الشعب المصرى تربية بناءة فى المرحلة التى تسبق المدرسة الابتدائية ، حتى لايكون هناك تمييز بين القادر وبين الذى لايقدر .

إن كانت مرحلة التعليم قبل المدرسة تهيىء الطفل لاستقبال برامج المدرسة الابتدائية ، وهنا قد درج القوم على الأطفال الأسوياء ، فما الأمر بالنسبة لغير الأسوياء ؟ هكذا خلقهم الله ، ولا حول لهم ولا قوة . إما أن يكونوا أو لايكونون . هل فى الإمكان أن تعد لهم برامج خاصة جدا ... وجدا بحيث لايحرمون من شرف الإسهام فى متطلبات المواطنة الصالحة للمجتمع الذى ينمو ؟

هذا تساؤل ... يجىء بعد أن ارتوينا من أحلام ورغبات أهداف حلوة سبق

ذكرها ، ونرجو أن تتحول الأهداف إلى برامج تحققها فى واقع حقيقى . إن المباركة بتلك الأمانى الرسمية ترجو مخلصة أن تتحقق .

«والله المستعان على ما تصفون»

صدق الله العظيم

توصيات عالمية

للدول النامية [١]

عقد اجتماع لخبراء التربية فى مرحلة ما قبل المدرسة ، باعتبارها الخطوة الأولى للتعليم مدى الحياة فى مركز اليونسكو الرئيسى ، وذلك فى الفترة من ٥-٩ يناير ١٩٧٦ . وتم بحث أهمية التكامل فى التربية بين المنزل والمدرسة ، وما بين المدرسة الابتدائية والمجتمع ، والطريقة التى يمكن للآباء بواسطتها أن يسهموا فى تربية أطفالهم ، خاصة فى الدول النامية .

وكانت الأوراق المقدمة للمشاركين فى المؤتمر : وثيقة العمل (ت-٧٦/ مؤتمر ٦/٨٠٦) وهى التقرير النهائى لاجتماع خبراء النمو النفسى للأطفال ، والتطبيقات على العمليات التربوية ، وكان هذا الاجتماع قد عقد فى شاميين - فى ولاية الينوى بالولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ٤ - ٦ مارس ١٩٧٤ ، كما قدمت كذلك وثائق مرتبطة بالموضع .

وقد تخيرنا من اجتماع يناير ١٩٧٦ بعض التوصيات أوردناها بأرقامها كما جاءت .

أولا : الواقع الحالى واتجاهات تربية طفل ما قبل المدرسة الابتدائية

١- يسلم المشاركون بخطورة سنوات ما قبل المدرسة على نمو الأطفال فى حاضرهم ومستقبلهم ، وهذا مما استدعى الاهتمام بتوعية الآباء وتثقيفهم تربويا ، ووضع

(١) سعد مرسى أحمد ، تربية طفل ما قبل المدرسة من المهد إلى اللحد . من بحوث ندوة تربية الطفل من ٣-٧ مارس ١٩٧٩ . مجلة كلية التربية - العدد الثالث ١٩٨٠ ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ص ٤١٥ - ٤٥١ .

برامج لمرحلة ما قبل المدرسة تضمن التشريعات جودة نوعيتها . وتتباين الخدمات التى تقدمها المجتمعات والحكومات لهذه المرحلة تباينا ، يعتبر محصلة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية فى هذا المجتمع أو ذاك . وكذلك يوجد هذا التباين فى القطاعات المختلفة فى المجتمع الواحد ، فبينما تحتاج بعض القطاعات إلى قدر أكبر من هذه الخدمات لايصيبها إلا القليل منها ، ومثل ذلك سكان الريف وفقراء المدن .

٢- حيثما توجد تربية ما قبل المدرسة ، ينظر إليها لا على أنها مجرد برامج تربوية ، بل على أنها كذلك وسيلة لتقديم الخدمات الصحية والاجتماعية ، وتوعية الآباء وإيجاد فرص عمل للنساء ، كما أنها وسيلة لدعم النجاح فى التعليم ، وتجنب احتمالات الإخفاق فى المدرسة فيما بعد .

٣- من المسلم به أن برامج ما قبل المدرسة ينبغى أن تكون مناسبة لخصائص المجتمعات على تنوعها ، وأن تلبى حاجات وتطلعات الأفراد والجماعات حتى تصيب النجاح، كذلك عليها أن تراعى النمو النفسى - الفسيولوجى للأطفال فى كل مرحلة .

٤- يرى المشاركون الحاجة إلى مساعدة الآباء كى يكونوا أكثر قدرة على تربية أبنائهم، والحاجة إلى استخدام عاملين فى هذا المجال مؤهلين جيدا ، كيما يعملون مع الأبناء والآباء وذلك أمر له أهمية كبيرة . وتدريب هؤلاء العاملين يختلف إلى حد كبير تبعا للمستوى التربوى المنشود . هذا وتهتم البرامج بنمو الأطفال الفسيولوجى والاجتماعى والثقافى والعقلى ، وتؤكد على ضرورة فهم القيم والممارسات الاجتماعية ، وتنمية القيم والمهارات اللازمة لنجاح الطفل فى المدرسة الابتدائية ، وما بعدها على امتداد حياتهم .

٥- إن تربية ما قبل المدرسة لايمكن أن تكون وسيلة للتغلب على كل المساوىء الاجتماعية . ومع هذا .. فهى سبيل لمزيد من الرعاية الصحية والاجتماعية

والتربوية للأطفال وأسرهم ، كما أنها سبيل لتلافى القصور فى مراحله المبكرة ، وعلاج معوقات الحاضر والمستقبل .

٦- أطلق عدد من المشاركين الذين أسهموا فى وضع بعض البرامج لهذه المرحلة إشارة تحذير من الإغراق فى التفاؤل ، ولكن يؤخذ فى الحسبان ما أكدته الدراسات فى عديد من البلاد والفوائد التى عادت على الأطفال سواء أثناء أو بعد مشاركتهم فى البرامج التربوية فى مرحلة ما قبل المدرسة .

٧- أثيرت مسألة التقويم من حيث قصور وسائله الراهنة عن تحقيق الأهداف المرجوة ، والمثل على ذلك إمكانية تقويم كفاءة العمل اليومى .

ثانيا : التكامل بين خبرة ماقبل المدرسة والمرحلة الابتدائية

٨- لاتعتبر تربية ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية قاصرة فقط على الخبرات التى تقدم فى سنوات هذه المرحلة أو تلك ، وإنما هى وثيقة الصلة كذلك بالخبرات الأخرى فى كل أنواع المؤسسات الاجتماعية .

٩- إن عوامل متعددة مثل : الأسرة ، ووسائل الاتصال ، والقيم ، والممارسات الثقافية تدخل فى الاعتبار من حيث تأثيرها فى المجتمع الكبير ، وتأثيرها على ما يمكن تحقيقه من خلال مؤسسات ما قبل المدرسة أو المرحلة الابتدائية . كما يدخل فى الاعتبار كذلك ما يبغى الأطفال والمعلمون والآباء من التربية ، حيث يؤثر ذلك كله على التفاعلات فى البيئة التعليمية داخل المدرسة .

١٠- يتزايد تفهم الدور الذى يقوم به الآباء والمعلمون كلما تزايد الاتصال بينهم ، ويمكن أن يكون هذا الاتصال عن طريق :

(أ) مشاركة الآباء فى إدارة المؤسسات التربوية .

(ب) الإفادة من المهارات الخاصة التى يمتلكها بعض الآباء فى البرامج التربوية .

(جـ) تشجيع الآباء على زيارة المدرسة والمشاركة فى أنشطتها بالطرق المناسبة .

(د) إفادة المعلمين بما يعرف الآباء عن أبنائهم ، مما يساعد على تعميق فهمهم للأطفال .

١١- حتى تستمر العلاقة بين مرحلتى ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية .. فإنه من المجدى أن يتفهم المعلمون فى كل مرحلة الأدوار التى يقوم بها زملاؤهم فى المرحلة الأخرى .

١٢- والطرائق التى يمكن بها تحقيق ذلك ، هى :

(أ) تدريب المعلمين للمرحلتين فى مؤسسات واحدة، حتى يمكن لكل فريق الإطلاع على عمل الفريق الآخر ، والإلمام بحاجات الأطفال من الأعمار المختلفة .

(ب) تجميع أطفال كل من المرحلتين فى مؤسسة تربوية واحدة ، أو أن تكون مؤسسات كل من المرحلتين على صلة وثيقة بالأخرى .

(جـ) تنظيم البرامج التربوية للتدريب أثناء الخدمة بحيث تناسب التربية كلا من المستويين .

(د) صياغة الأهداف الخاصة بالتربية لكل مرحلة والإعلام بها .

(هـ) إشراك الأطفال فى الأعمال المتصلة بالعالم الخارجى للمدرسة ، حيث إن كثيرا من الأعمال التى يمكن أن يقوم بها الأطفال لمساعدة الكبار لها قيمتها التربوية .

(و) الاستعانة بالآباء والأجداد وبكل من يمكن الاستعانة به من الناس بطريقة مباشرة فى تربية الأطفال ، بغية الاستفادة من قدراتهم وخبراتهم . وهنا تأكيد لمفهوم التربية الواسع من أنه عمل لايضطلع به المعلمون وحدهم ، وإنما يشارك فى ذلك المجتمع والأسرة .

١٣- تلعب اللغة دورا كبيرا فى استمرارية التربية بين المرحلتين ، لكن قضايا عديدة

تبحث عن حل فى هذا الصدد : ففى البلاد ذات اللغات المتعددة يبدو أنه لابد أن يتعلم الطفل أكثر من لغة واحدة ، وحتى فى المجتمعات التى تسود فى كل منها لغة واحدة .. فإن بعض الأطفال يتعلمون بلغة مخالفة لما يسمعون ويستعملون فى أسرهم .

١٤- المقصود بتعلم اللغة الاستماع والحديث والقراءة والكتابة ، وهذا التعلم له تأثيره الانفعالى على المتعلم ، مما يجب أن يعيه المعلمون والمسئولون عن التربية حيث إن رفض لغة أو لهجة الطفل الخاصة ، يمكن أن يفسره الطفل على أنه رفض له شخصيا ولأسرته .

١٥- ينبغى التحوط لدى استعمال طرائق ومواد تربية منقولة عن بلاد أو مجتمعات أخرى ، فمن الضرورى تقويم ما هو منقول قبل استعماله لتبين مدى ملاءمته للوضع الذى سيستخدم فيه ، ويحسن التجريب على نطاق ضيق قبل التعليم على عدد أكبر من الأطفال . يضاف إلى هذا أن الاعتماد على الإمكانات المحلية المتاحة أمر مرغوب فيه من حيث فائدته فى خفض الكلفة .

١٦- فى حالة استعمال اختبارات الاستعداد للتعلم .. فإن الحذر ضرورى حتى لايدمغ الأطفال بالفشل من قبل أن يلتحقوا بالنظام المدرسى . ومثل هذه الاختبارات ينبغى أن يستعمل لتشخيص جوانب الاستعداد للتعلم بعد تحديد مفهوم الاستعداد ، وتحليل ما تتطلبه المؤسسة من استعدادات ، وتعديل هذه المتطلبات فى ضوء فهم نمو الأطفال ، كما ينبغى أن تكون الاختبارات وسيلة للتعرف على مشكلات الأطفال وحلها .

١٧- وهذه الاختبارات لايجب الخلط بين مفهومها ومفهوم الاختبارات العلاجية ، أو اختبارات الانتقاء للقبول فى المدارس .

١٨- فى مؤسسات تديرها سلطات مثل وزارات الصحة والشئون الاجتماعية ، يجب

أن يحدث التكامل بتبادل الفكر والمشورة والبحث فى مجال رعاية الأطفال وتربيتهم .

١٩- إن التربية على أى مستوى وفى أى وضع يجب النظر إليها باعتبارها وسيلة لغاية ، وليست غاية فى حد ذاتها .

ثالثا : مفهوم التربية مدى الحياة وتطبيقاته على تربية سنوات العمر الأولى

٢٠- تعتبر كل من التربية مدى الحياة والتربية فى سنوات العمر الأولى ، مفهومين يتمم كل منهما الآخر . ويتضح فى كل بند أن المساواة فى إتاحة الفرص للتعليم الرسمى لاتؤكد فى حد ذاتها القدرة على الاستفادة من هذا التعليم . وتبدو السنوات الأولى من الميلاد حتى السنة السادسة على أكبر جانب من الأهمية لنمو قدرات التعلم التى تظهر بعد ذلك سواء فى المدرسة ، أو حين يبلغ الطفل سن الرشد، وتدل الشواهد على أن :

(أ) السنوات الثلاث الأولى سنوات دقيقة الأهمية فى نمو اللغة ، والقدرة على حل المشكلات ، والسلوك الاجتماعى ، والنمو الانفعالى عند الطفل .

(ب) الحافز الأساسى للتعلم الموجود عند الطفل ، ينمو نتيجة لتأثير الكبار فى بيئته . وبهذا يتعلم الأطفال أن «يتعلموا» ، أو هم يتعلمون ألا «يتعلموا» كنتيجة لنوع التوجيه الذى يتلقونه من الكبار ، خلال سنوات حياتهم الثلاث الأولى .

(جـ) الفترة من بعد الشهر السابع من حياة الطفل تبدو ذات أهمية جسيمة بالنسبة لنمو اللغة ، وحب الاستطلاع ، والسلوك الاجتماعى ، وبدايات نمو الذكاء والنمو الانفعالى .

(د) تلعب اللغة دورا كبيرا مهما فى نمو المفاهيم والسلوك الاجتماعى عند الطفل، وهى تبدأ فى النمو السريع حوالى الشهر السابع أو الثامن من الميلاد إلى السنتين الأوليين وما بعدهما ، وتتضح أساسيات اللغة التى يكتسبها الطفل فى نهاية السنة الثالثة .

(هـ) يؤثر الأبوان - بصفة خاصة الأم - وكذلك الأشخاص الذين يكثر احتكاك الطفل بهم فى اكتساب الطفل اللغة ، من حيث الطريقة التى يتحدث بها الطفل ، والتى يدعم بها سلوكه اللغوى بالثواب أو العقاب أو التجاهل .

(و) مع وجود حب الاستطلاع لدى كل الأطفال ، إلا أنه يظهر بوضوح فى الشهر الثامن من الميلاد ، ومالم يقابل حب الاستطلاع بالمكافأة والتشجيع .. فإنه من الممكن أن يخبو فى السنة الثانية ، أو يتلاشى إلى درجة كبيرة .

(ز) يلاحظ النمو الاجتماعى بشكل خاص فى الشهر الثامن ، وتظهر فى السنة الثانية محاولات جذب الاهتمام والالتجاء إلى الكبار للحصول على عونهم ومساعدتهم .

(ح) تترعرع لبنات الذكاء كما ذكر بياجيه بواسطة البيئة ، وإذا كانت شروط البيئة مواتية ينمو الذكاء نموا مرضيا فى سن الرابعة .

٢١- ولكى تتحقق التربية مراعية الجوانب السابقة ، فإن هذا مطلب يعتمد على كفاءة من يتولى أمر الطفل ، ولا يبدو أن ذلك يتطلب مستوى عاليا من التعليم بالنسبة للوالدين ، أو وسائل تتكلف نفقات باهظة . صحيح أنه بعد سن ٢ : ٣ سنوات حين تنمو أساسيات لغة الطفل ومفاهيمه ، يؤثر مستوى ثقافة الأباء (أو من يرعى الطفل) تأثيرا كبيرا على كفاءتهم فى تربيتهم لأطفالهم ، إلا أنه يمكن فى الحالات التى يتوافر فيها عندهم الوقت الكافى ، أو الفرص المواتية ، أو المعارف والمهارات لتشجيع النمو اللغوى ورعاية حب الاستطلاع ، والسلوك الاجتماعى والذكاء ، أن يلجأوا إلى مساعدة بعض الأسر الأخرى بمن فيها من

كبار وصغار ، وأن يتلقوا التدريب والمساعدات العملية فى طرائق توجيه نمو الأطفال . ويمكن أن تسهم فى ذلك مؤسسات رعاية الطفل ، وبذلك إن لم يحدث ما يعوق النمو فى سن ٢ : ٣ سنوات .. فإن أنماط التربية المتعددة خارج المنزل تكون لديها فرص أكبر للنجاح على مدى السنوات التالية .

٢٢- تختلف أنماط المساعدة المطلوبة باختلاف الأوساط الاجتماعية ، وأسلوب الحياة الثقافية ، والمستوى الذى يراد بلوغه . وفى حالة قيام بعض العاملين فى التربية الصحية أو الرعاية الاجتماعية بتقديم المساعدة .. فإنه من اللازم أن يكونوا على دراية بالمهارات والتكتيكات اللازمة للعمل .

رابعا : الدور التعاونى للمنزل والمجتمع من أجل نمو الأطفال المتكامل فى سنوات ما قبل المدرسة وأهمية تثقيف الآباء

٢٣- فى بعض البلاد وفى بعض الأوساط الاجتماعية توجه مسألة تثقيف الآباء من أجل تحسين نوعية الحياة ، بينما فى أماكن أخرى ، يكون من الضرورى أن يتركز على مجرد ما يضمن البقاء على قيد الحياة ، أى أنه يجب توفر الحد الأدنى من الحياة قبل التفكير فى تحسين نوعيتها .

٢٤- وحين توجد مشكلات زيادة السكان ، ونقص الغذاء ، وهبوط المستوى الصحى وانتشار الأمراض ، والافتقار إلى الحد الأدنى من التربية ، وحين تكون الموارد البشرية والمادية محدودة ، فليس من المحتمل أن يكرس اهتمام كبير لتحسين بيئة الطفل التعليمية ، إلا أنه من الممكن تقديم بعض البرامج التى لاتحقق هدفا واحدا على حساب بقية الأهداف . فلو افترضنا أنه قد تم إشباع الحاجات الجسمية .. فإنه يكون من الممكن إقامة برامج تهدف إلى تربية كائنات إنسانية متكاملة النمو. ولتحقيق هذا من الضرورى أن نعرف كيف ينمو الأطفال ، كما أنه من الضرورى أن نعرف بالأخص كيف ينمو الأطفال فى السنوات المبكرة الأولى ، حتى

يمكن تعزيز وتنمية مهاراتهم التربوية . إنه لمن الضروري أن توجه رعاية خاصة إلى هؤلاء الأطفال الذين يبدو نموهم محفوفا بالمخاطر في العالم الفقير .

٢٥- إن معظم الآباء قادرون على تفهم أطفالهم تفهما معقولا في سنوات المهد ، ولكن حين يبدأ أطفالهم في الحبو والكلام .. فإنهم يحتاجون إلى مزيد ومزيد من الاهتمام ، حيث يكون الطفل عرضة للأخطار مع نموه الحركي والمعرفي ... وفي هذه المرحلة يستطيع الآباء - بمعض المساعدات - الكشف عن نواحي القصور في نمو الطفل ، خاصة إذا استعملوا بعض وسائل الكشف عن النقص في نواحي النمو المختلفة على فترات منتظمة خلال السنوات الثلاث الأولى من حياة الطفل .

٢٦- هناك وسائل سهلة الاستعمال ، يمكن استخدامها لاختبار الطفل في المهد ، وفي الشهر السادس ، وفي السنوات الثلاث الأولى من العمر .. وتوجد اختبارات يمكن أن تستعمل للكشف عن عيوب السمع في الأطفال من سن ٤ أشهر ، وبالنسبة للدول النامية .. فإن إمكاناتها والخدمات المتاحة فيها يمكن أن تلعب الدور المطلوب مع بعض المساعدات .

٢٧- يرسب أكثر من ٦٠٪ من الأطفال في المدرسة الابتدائية في بعض البلدان النامية، وإذا أمكن تخفيض هذا الهدر إلى النصف فقط .. فإن الكلفة في هذه الحالة تبدو معقولة . ومسألة تثقيف الآباء في حالة الدول النامية مشكلة صعبة ، وإنما من الممكن حث السلطات على مد الخدمات الموجودة فعلا لتشتمل هذه المسألة .

٢٨- من الضروري أن يحوز العاملون في هذا المجال القبول ممن سيقومون بمساعدتهم، وهذا يعني أنه يمكن - في بعض الأحوال - استخدام القيادات الاجتماعية والعاملين في الخدمات الصحية والرعاية الاجتماعية والمعلمين . يضاف إلى هذا المسئولون في الحكومة والهيئات المتطوعة التي تقدم الخدمات في قطاعات الريف

والمدينة . وإنما من الضرورى زيادة تثقيفهم حتى يتسنى لهم أداء الدور المطلوب فى نمو الطفل التربوى والنفسى .

٢٩- يمكن فى بعض البلاد وبعض القطاعات استخدام الإذاعة والتلفزيون والكلمة المطبوعة لنقل المعلومات المبسطة المقبولة ، والتى تقدم بطريقة لاتتعارض مع التقاليد والعادات المحلية .

٣٠- يمكن للبرامج المتنوعة التى توجد حاليا ، مع مساعدة المختصين وبالتدريب أثناء الخدمة وبتقديم المساعدات المالية ، يمكن تحقيق كثير من الأهداف دون الالتجاء إلى إنشاء جهاز بيروقراطى معقد وكبير . ويمكن بثورة القيادات المحلية ومراعاة التقاليد الاجتماعية إقامة برامج جديدة ، وبذلك تقدم المعرفة العلمية فى إطار مرضى عنه من المجتمع .

خامسا : بعض المقترحات لتلبية المطالب الخاصة بالدول النامية فى مجال تربية ما قبل المدرسة

٣١- من الصعب أن نتبين كم من المقترحات العلمية المفصلة ، يمكن تقديمها بحيث تكون متناسبة بطريقة مباشرة مع الظروف المتباينة إلى أقصى حد فى الدول النامية ، وكل من هذه الدول له مشكلاته الخاصة به ، ويتفاوت فى كل منها مستوى الخدمات ، إلا أن القاسم المشترك بينها ضعف الامكانات وفى معظم الأحوال أبسط الامكانات ، وهذا مما يفرض الحرص الشديد فى استخدام ما هو متاح من مصادر فيها ، ويفرض الاستخدام الأمثل لما يمكن الانتفاع به .

٣٢- على هذا .. فإن من أهم المقترحات العامة .. أن تجمع المعلومات عن التجارب القليلة التكاليف ، وكيفية ترشيد الإنفاق ، مع بعض دراسات الحالة عن نمو وتطور أهداف خدمات ما قبل المدرسة فى البلاد المختلفة ، وتقديم الحلول

٣٣- إذا لم تكن إمكانات الدول النامية تسمح بتقديم خدمات ما قبل المدرسة على غرار ما هو كائن فى الدول الأكثر تقدما .. فإنه من الممكن الإفادة من الامكانات الثقافية والاجتماعية من أجل ايجاد صيغ مناسبة للتربية فى هذه المرحلة . على أن تكون هذه الصيغ أقل كلفة وأكثر مواءمة واتساقا مع المجتمع .

٣٤- من المرغوب فيه الانتفاع بالخبراء المدربين من الدول الأكثر تقدما ، ولكن مع تحاشى فرض المواد التربوية والأفكار غير المناسبة للمجتمع المحلى . وينبغى التحرز فى استخدام النماذج والنظم الأجنبية ، وحتى الكتيبات أو أى مواد تربوية أخرى مالم تكن متفقة مع طبيعة المجتمع . ومن ثم تلزم الدراسة الشاملة للظروف والأحوال التى يعتزم أن يقام فيها أى مشروع تربوى ، كما يلزم التجريب على نطاق ضيق قبل أية محاولة للتعميم .

٣٥- وتملى ندرة الإمكانات الحذر من منظور آخر ، فالطفل الصغير هو الهدف فى معظم البلاد ، للجهود الطبية والخدمات الاجتماعية والغذائية ، ومن الواضح أنه من الأفضل العمل من خلال ما هو قائم من خدمات للمساعدة فى تثقيف الآباء، كى يكونوا أكثر قدرة على تلبية حاجات أطفالهم النفسية والتربوية بدلا من إيجاد هيئات من العاملين فى هذا المجال . وهذا يستدعى شيئين : أن ينظر إلى مرحلة ما قبل المدرسة على أنها جزء ضرورى من تربية الطفل، وأن رعاية النمو فى هذه المرحلة ضرورة للنجاح فى التعليم فى المراحل التالية ، وأن يقوم العاملون فى هذا المجال بدورهم كمربين من ناحية ، ومثقفين تربويين للآباء من ناحية أخرى

٣٦- فى هذا السياق الفكرى العام ... تظهر المقترحات العلمية التالية :

(أ) اقناع المديرين والسياسيين ، وصانعى القرارات ، وهيئات الخدمات الصحية والغذائية والاجتماعية والرأى العام ، بالأهمية البالغة لمرحلة النمو من الميلاد إلى سن الثالثة ، ومن الثالثة إلى سن ٦ سنوات .

(ب) نشر وتداول المعلومات العلمية عن النمو فى مرحلة الطفولة المبكرة فى البرامج القائمة فعلا ، مثل البرامج التى تقدمها الخدمات الصحية والشئون الاجتماعية ، وبرامج محو الأمية ، وتخطيط الأسرة والزقتصاد المنزلى ، وفى المدرسة وكل مكان .

(جـ) أن تأخذ المنظمات التربوية حذرها فى الطرق التى تتبعها لتربية الأطفال، وأن تكون محتويات برامج تثقيف الآباء وكل العناصر والمواد التربوية متناسبة مع الظروف المتغيرة .

(د) لاينصب الاستخدام الاقتصادى الأمثل على الإمكانات البشرية ، مثل: الإخصائيين ومساعديهم ، والقيادات الاجتماعية فى أشكال من المشاركة والتعاون فحسب ، بل أيضا على الانتفاع من الإمكانات الثقافية والاجتماعية ، وهذا يجب أن يعزز إذا لزم الأمر بمساعدة السلطة الحاكمة.

(هـ) يراعى أن يكون لدى العاملين مع الأسرة والعاملين بالهيئات التى تتعامل مع الأطفال الحد الأدنى من فهم حاجات الطفل ، كما يراعى توجيه عناية خاصة لتنمية المهارات الاجتماعية اللازمة للعمل مع الآباء وغيرهم من الراشدين .

(و) تتضمن عملية تثقيف الآباء شقين : تنمية معارف عامة محققة عن نمو الأطفال الصغار ، وترجمة ذلك إلى خطط تربوية تعمل فى اتساق مع الثقافة المحلية ، ويمكن أن يتم الشق الأول بطريقة مركزية ، أما الشق الثانى فيتم بمشاركة أهل المجتمع المحلى مع استشارة الخبراء .

(ز) كذلك .. فمن الضرورى أن تكون تنمية المواد التربوية واللعب والمباريات وما شابه مستنبطة من البيئة المحلية ، فى كل دولة ، وفى كل قطاع من المجتمع ، مهما كان شكل المساعدات من الخارج .

(ح) ومن أجل تحقيق الفاعلية الاقتصادية .. لابد من مشاركة أهل المجتمع المحلى فى تخطيط واستعمال الموارد المحلية مثل ملاعب الأطفال ، واستخدام المؤسسات الموجودة لتقديم مختلف أنواع الخدمات ، لتمثل المدارس والمراكز العلمية ، وأماكن الاجتماعات العامة ، وما إلى ذلك .

سادسا : ما يمكن أن يسهم به اليونسكو فى هذا المجال

٣٧- من الواضح أن هناك حاجة ماسة لتوعية المديرين والعاملين فى المهن المتصلة بهذا المجال ، بخطورة سنوات العمر من الميلاد حتى السنة السادسة ، وبصفة خاصة من الميلاد حتى السنة الثالثة عن طريق برامج التعليم مدى الحياة . كما أن هناك حاجة أيضا ليتفهم المديرون - سواء فى المستوى المركزى أو المستوى المحلى - الطبيعة الخاصة للعمل مع الأطفال ، وما يمكن أن يسهم به الآباء والطرائق التى يمكن بواسطتها تقديم برامج فعالة قليلة الكلفة نسبيا .

٣٨- ويمكن لليونسكو أن يخدم الدول التى تعتزم تأسيس تربية ما قبل المدرسة بعديد من الطرق :

(أ) المشاركة التربوية الكاملة من جانب اليونسكو فى مرحلة ما قبل المدرسة من منطلق أن الحاجات النفسية وحاجات النمو عند الأطفال الصغار لها من الأهمية ما للنواحى الصحية وما للتغذية .

(ب) جمع ونشر المعلومات عن المشروعات ذات الكلفة المنخفضة من كل الأنواع مثل : المنظمات التربوية ، وتثقيف الآباء ، وتدريب وإعداد المساعدين المهنيين، وتحسين البرامج القائمة وتصميم نماذج المواد التعليمية ، وما إلى ذلك.

(جـ) تقديم المعلومات العلمية المتاحة عن نمو الأطفال - خاصة حتى سن الثالثة، مع المقترحات العلمية - فى صورة موضوعات مكتوبة مع الحيطة الشديدة .

(د) التقويم الدقيق للمعلومات الجديدة التى أمكن التوصل إليها عن نمو الطفل، وتقديم ماهو محقق من هذه المعلومات فى هذا المجال .

(هـ) حيث إن عملية الانتقاء من الخبرة المعرفية المتاحة ، ومن أشكال المنظمات وما شابه ذلك ، وفقا للحاجات المحلية هى عملية دقيقة ، فإن اليونسكو يمكن أن يعد دورية مبسطة عن مسح الحاجات وتقويم البرامج ، كذلك يمكن تقديم المشورة بطريقة عملية يشارك فيها الآباء والخبراء معا فى مجال رعاية الأطفال الصغار .

(و) الإسهام بمقترحات عن المادة التعليمية التى يمكن تقديمها عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، والكلمة المطبوعة فى مجال التدريب أثناء الخدمة ومحو أمية الكبار وتنمية المجتمع ، وما شابه ذلك من نشاطات .

* * *

وفيما يلى عرض للورقة الرئيسية ، التى قدمت فى ندوة المسئولين عن رياض الأطفال فى الوطن العربى .

تصور تربوى عربى لمؤسسة رياض الأطفال[١]

مقدمة

لكى نرسم صورة لمؤسسة رياض الأطفال فى الوطن العربى .. علينا أن نذكر أن المرحلة المقصودة بالذات ، هى الواقعة فيما بعد الفطام من الرضاعة حتى دخول المدرسة الابتدائية، وعلينا كذلك أن نتذكر أن العالم العربى يختلف - من مكان إلى مكان - اختلافات كبيرة ، ففيه كثرة من وديان الأنهار وقمم الجبال ، وفيه سواحل البحر وفيافى الصحراء ، وفيه المناطق المعتدلة والمناطق الاستوائية ، وفيه المراعى الموسمية والزحف الصحراوى المتصل المستمر . وفى كل هذا يعيش العربى متأثرا فى بيئته بمعاييره وقيمه وسلوكياته وعاداته المتباينة ، ونجد كذلك مواقفه المتعددة من التربية ومن الطفولة ، ومن الخبرة ومن التعلم ، ومن التدين ومن الأسرة ، ومن العمل ومن جوانب الحياة المختلفة .

ومع كل هذه الاختلافات .. تقع بمرور الزمن تغيرات فى أفكار الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم . ونجد أن هذه التغيرات تزداد فى سرعة وقوعها مع مر الزمن وتقدمه فكان الناس فى الماضى لايشعرون بهذه التغيرات لبطء وقوعها ، ولأنهم يعيشون هذه التغيرات . ومن بين المؤسسات التى تخضع لهذه التغيرات . الاسرة والمدرسة والمجتمع .

ونحن نعرف أن الأسرة هى المسئولة أصلا عن رعاية الطفل وعن إحاطته بأسباب قوة الشخصية ، أو ضعفها وأسباب اختلافات نمط الشخصية ونوعها .

---

(١) عبدالعزيز القوصى ، سعد مرسى أحمد ، كوثر كوجك : «رياض الأطفال فى الوطن العربى - الواقع والطموح» المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٠ - ١٨

عند اجتياز المراحل التالية وهى المسئولة عما ننشد له من مراتب الثقة بالذات، ومراتب النمو والنضج فى مناخ ، يجب أن يتوافر فيه الأمن والطمأنينة والحرية والتقدير .

وحيث إن الأسرة هى المسئولة أصلا عن تربية الطفل فى سنوات الحياة الأولى، فلا بد أن يكون هذا كله هما لها إلا إذا كان قد حدث من التغيير ما يدعو إلى إعادة النظر فى دور الأسرة ووظيفتها إزاء الطفل .

١- نظرة إلى حياة الطفل فى الأسرة :

نحن لانناقش - كما قلنا - حياة الأسرة بالنسبة إلى طفل ما قبل الثالثة من العمر، فخير مكان يمكن أن ينشأ فيه الطفل فى السنوات الأولى من حياته هو الأسرة، فحاجة الطفل إلى حنان الأم واستمتاعه بالركون إلى حضنها وبين ذراعيها ، حاجته إلى الغذاء الذى يمده بأسباب الحياة ، وهذه هى السمة البارزة حينذاك ، وفى هذا المناخ الحافل الممتلىء بالحب والعطف والرعاية .. ينمو الطفل نموا طبيعيا متزنا مع الحياة ومتفتحا لها ، وتسلك الأمهات البدائيات والريفيات كما لو كن يعرفن بفطرتهن عن هذا الشىء الكثير مما قد لاتعرفه بطبيعتها الأم الحضرية الحديثة .

ومع ذلك اتجه المجتمع إلى إنشاء دور الحضانة ، ودور رعاية الرضع . وعلى الرغم مما يقال عن حاجة المجتمع إليها ، وما يقال فيما تسديه من تعويض بسبب خروج المرأة إلى العمل ، وبسبب رغبة المرأة فى الاستقلال عن سيطرة نظام حياة الأسرة .. فإننا نرى عدم المبالغة فى تشجيع الإيداع فى دور الحضانة وما يشبهها إلا عند الضرورة ، وقد ثبت بالبحث أن الرضع والأطفال ممن نشأوا من أول الأمر فى دور المؤسسات إنما ينمون على غير قليل من التمرد والانحراف رغم أن الإيداع فى هذه الدور هو الحل الأوحد . أما حياة الأسرة بالنسبة لطفل ما بين الثالثة والسادسة فانما

تمثل الجو الذى بدأ فيها شعوره بالأمن والطمأنينة والثقة بالذات . وهو الجو الذى بدأ الطفل ينطلق فيه بالكلام والمشى والجرى والاتصال بغيره ، وعن طريقة المشى والكلام وغيرهما يتعامل الطفل مع من حوله ، ويكتشف ما حوله ، ويكون لنفسه المفاهيم والاتجاهات والمهارات . وظاهرات الكلام والمشى والفطام وتناول الأشياء ، كلها ظواهر استقلالية يشعر فيها الطفل بما يدور من حوله ، وبإمكانياته ومقدراته وكيانه . والطفل فى هذه المراحل كثير الحركة ، كثير الأسئلة ، شديد الميل إلى توسيع دائرة تعامله ، فهذه علامة من علامات النمو تسعده وتشجعه . وحاجة الطفل إلى النمو وإلى الشعور بوقوعه من حاجاته النفسية الاساسية فى هذه المرحلة . وبعد أن كان تعامل الطفل أساسا مع أبيه وأمه وإخوته ، إذا به ينتقل بتعامله إلى الجيران والأقرباء، ولا يكاد يمر على الطفل بعد فطامه عامان حتى يكون قد اكتسب كثيرا من المهارات اللغوية والبدنية واليدوية ، وهذه المهارات هى أدواته التى يستعملها فى حياته بعد ذلك وينميها وينمو بها ، وينمى قدرته على التعلم وقدرته على اكتساب القدرات مما يحتاجه فى حياة المدرسة وحياة العمل .

ويسلك الطفل فى هذه المرحلة ، كما لو كان يستخدم هذه المهارات وينميها ويتدرب عليها فهو كثير العمل بيديه وبدنه ، وكثير الاستخدام لسمعه وبصره وإحساساته ، ويبدو كما لو كان فخورا بما يحدث ومعجبا بإحداث أثر فيما حوله وفيمن حوله ، فهذه من علامات تقييمه لقدراته ومهارته ، ويشعر معها باتساع دائرة تعاملاته ومقدراته مما يعطيه ثقة فى نفسه ، وقدرة فى نمو يتجاوز واقعه الحالى وينمو معه مفهومه عن ذاته ومفهومه عن غيره ، ولهذا ينضج ويتفتح ويزدهر ويكبر .

٢- تغيرات فى حياة الأسرة العربية

يتعرض العالم كله بمختلف مستويات أجزائه للتغير ، وقد شوهد أن هذا التغيير يتزايد مع مرور السنين ، فالتغير فى القرون الأولى كان الإنسان يعيشه ،

دون أن يشعر به كثيرا، أما التغير فى الأحقاب الأخيرة.. فقد بدأ يتزايد فى سرعته، ويشتمل جملة الأمور وتفاصيلها وتشمل ماحولها وما فى خارجها وما فى داخلها . فبعد أن سمعنا عن حرب المائة عام أصبحنا نكتوى بحرب الست الساعات ، بل أصبحنا نرى ممكنا أن تحسم حرب عملها فى تغيير جزء كبير من العالم فى بضع دقائق ويتناول التغير التفجر فى سكان العالم ، وفى المعرفة والتكنولوجيا ، وظاهرة التلوث ونقص الطاقة ونقص الغذاء والتضخم ، كما يتناول أبعاد السياسة المحلية والإقليمية والدولية، ويتناول أبعاد الاقتصاد كما يتناول أبعاد المواصلات ، مما جعل الكرة الأرضية تسمى القرية الكروية ، ويتناول أبعاد الاتصال والاعلام مما جعل الناس غير قادرين على التفكير بأنفسهم ولانفسهم ، وإنما أصبح الناس معرضين للتأثر بأفكار غيرهم، وقد صدق الشاعر الإنجليزى حين قال مامعناه «إن الفكرة التى أفكر فيها ليست فى الحقيقة فكرتى، وإنما هى فكرة من يفكر أننى يجب أن أفكر بأفكاره» .

وإذا أخذنا بما حدث من تطوير فى وسائل الإعلام والاتصال كمثال من أمثلة التغير نجد أن الأسرة قد تغيرت بسببها فى جوانب كثيرة ، وكلنا يعرف انتشار الإذاعة والتليفزيون والصحافة ، ونعرف تأثير برامج العالم المتقدم المسيطر فى هذا المجال على العالم الثالث ، وقد أصبح أهل العالم الثالث عرضة - فى المشاهدة والاستماع - للتأثر بجوانب التقدم من علم وتكنولوجيا ، ومن تعاملات وسلوكيات بشرية مألوفة ، وبذلك يهتز ما عنده من قيم ، مما يترتب عليه اختلال فى التوازن يحتاج معه إلى جهد كبير حتى يتوافق وحتى يستعيد توازنه ويحدد موقعه . وبغض النظر عن المضمون الذى تحمله وسائل الإعلام .. فإن مجرد وجودها وانتشارها وجاذبيتها تنشأ معه عادات جديدة فى حياة الأسرة ، فبعد أن كانت العلاقات علاقات مباشرة بين الأب والأم والأولاد نجدهم جميعا - فى أغلب الأحيان - مشدودين إلى التلفيزيون ، مع تخفيض فى أهمية العلاقات البيئية ، فبعد أن كان أفراد الأسرة يجلسون معا إلى مائدة الطعام ويتحدثون معا ويتفاعلون معا .. نجدهم يجلسون يحدق كل واحد منهم منفردا فى

الجهاز الذى أمامه، وتقل التفاعلات البيئية وهى تفاعلات أساسية فى تماسك الأسرة وإنماء الانتماء إليها، مما نحتاجه فى بناء الشخصية وفى تكاملها ، ومن ذلك نرى أن تيار وسائل الاعلام يسير فى اتجاه واحد ، ونراه على فائدته فى التنمية له جوانبه السلبية المدمرة .

وهناك تطور المواصلات كمثال آخر إذا أضيف إلى العامل السابق ، نجد أن تحرك الشخص من مكان إلى مكان أصابه تطور كبير ، يجعل هجرة الشباب وانتقال الناس من مكان إلى مكان أمرا فى غاية السهولة ، ويجعل انتقال التكنولوجيا وانتقال العادات والتقاليد أمرا يسيرا ، مما يترتب عليه زيادة الاختلاط . وفى العالم الآن ما يزيد على ٢٠ مليون ممن غيروا محال إقامتهم ، وأصبحوا يعيشون ويعملون فى بلاد غير بلادهم التى نشأوا فيها ، وأصبحت تسمية الكرة الأرضية بالقرية الكروية أمرا مألوفا ، وبذلك نرى أن نتائج تطور المواصلات والاتصالات تؤثر فى حياة الاسرة العربية ، إذ تعرضها للتأثر بالقيم والاتجاهات المستوردة من خارج البلاد . وبمرور الوقت .. يحدث امتزاج وتداخل وتغلغل فى الثقافات ، مما يحتمل معه اتجاه العالم نحو التجانس ونحو فقدان التماسك فى الذاتية الثقافية . ومعنى هذا أن شعوب العالم الثالث تسير نحو فقدان طابعها الأصيل ، ومعروف أن اختلاف الانماط الثقافية مع توافر التقدير المتبادل بينها أروع رونقا وأقرب إلى الصحة النفسية من الاتجاه نحو التجانس .

وبالإضافة إلى التعرض لآثار التطور الهائل فى وسائل الإعلام .. فإن الأسرة العربية تميزت فى الماضى بالتكتل والانتماء الأسرى ، مما يصاحب المجتمعات الزراعية والقبلية . وقد اتجهت الآن بسبب التحرك نحو التصنيع إلى طابع البلدان الصناعية . وقد صاحب هذا تغير واضح فى القيم الاجتماعية السائدة فالإبقاء على زواج الأقارب والحفاظ على صلات الدم ، وعلى الأصول القبلية .. كل هذا فى طريقه إلى الزوال السريع كذلك نلاحظ أن سيطرة الأبوة والأمومة وكبار السن فى حياة الأسرة ، وفى

اختيار الزوج أو الزوجة ، وفى كثير من شؤون الحياة - كمجال العمل والمعيشة - قد بدأت تقل فى بعض الأوساط وقد تلاشت تماما فى كثير من الأوساط .

ونشاهد أيضا أن المرأة قد خرجت إلى ميدان العمل ، وأنها تحررت إلى درجة كبيرة من سيطرة الأسرة وسيطرة الرجل ، وبدأت تكل أطفالها إلى غيرها أفرادا أو مؤسسات ، وبدأ الرضيع يفقد حقه فى الحب والحنو والاستمتاع بما يحتاجه لنمو متوازن . كان لدى الأسرة العربية فى الماضى فسحة فى المكان ، مما يتيح للطفل الجرى والقفز والرقص وتقييم الأبعاد والمسافات والمساحات . كان هذا للأسرة الممتدة حيث كان يعيش مع أجيال من الجدود والأعمام والأخوال والإخوة ، وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، مما يتيح له فرص التعامل الاجتماعى المتنوع ، وفرص التقاط القيم والمعايير والمفاهيم من خلال أوساط متعددة المراتب ، وتعمل هذه الاوساط كمرشحات للتنقية والتبسيط . كان فى مجال الأسرة العربية الريفية ، أو مجال لحياة الحيوان والطيور من قطط أو كلاب ، أو أرانب أو دجاج وحمام وعصافير وغير ذلك ، وكان من السهل عليه أن يشهد مظاهر الحياة ، والمرض ، والموت والطفولة والشيخوخة ، والولادة ووضع البيض ورعاية الصغار ، وكان يراها حيث الكبار منهم يغذون الصغار ، وكان يرى الظواهر الطبيعية فى خلقتها الطبيعية خلوا من الانفعال البشرى ، وقد حرمت الحضارة الحديثة الطفل الحديث من كل هذا ، وهى فى سبيلها إلى حرمان أكثر ، مما يجعل طفل العاصمة يكبر فى السن دون أن يلم بالمفاهيم الأولية عن حياة الحيوان وحياة النبات وظواهرهما .

ولا يتسع المجال لإيفاء هذا الموضوع حقه ، ولكن خلاصته أن الحياة فى الاسرة العربية وفى المجتمع العربى فى طريقها لتغير سريع متسارع ، له أثره المباشر وغير المباشر فى المناخ الذى ينشأ فيه الطفل ، وله أثره فى حجم الأسرة وفى تحديد مجالاتها وفى العلاقات بينها ، وفى جدب العلاقات العاطفية الأبوية البنوية وغير ذلك كثيرا مما لايتسع المجال لحصره .

٣- الحاجة إلى مؤسسة رياض الأطفال

كلمة رياض جمع لكلمة روضة بمعنى حديقة ، وهذا بالضبط ما قصده فروبل الألمانى عندما ندت منه صيحة على ربوة عالية قائلا Kindergarten ، أى روضة الطفل. وكان بذلك يعبر عن حيرة ألمت به عندما فكر فى تسمية المكان الذى يذهب إليه الأطفال ، ليحيوا حياة سعيدة بضع ساعات كل يوم فى لعب ومرح واستمتاع ، وكانت طفولته ، أى طفولة فروبل ، قد حرمت من كل هذا ، فأراد أن يسعد الأطفال .

فى هذه الحديقة يستمتع الصغار بأنواع شتى من الأنشطة التى يقبلون عليها تلقائيا . وتتضمن التلقائية بالضرورة أن الأطفال يفرحون ويسعدون ، وهم يمارسون أنشطة متنوعة قادرة بأن تنميهم جسميا وعقليا وخلقيا واجتماعيا . وقد اتفق كثيرون من المربين على أن يطلقوا كلمة «مرشدة» على من يتولون أمور الأطفال فى تلك الرياض ، ولذلك نرجو أن يستبعد تغبير «المروضة» ، لما قد يفهم منه من معان أخرى .

وربما يعتبر الوقت الحاضر - أكثر من ذى قبل - مناسبا وملحا لانتشار هذه الرياض بعد أن طرأت على المجتمع العربى تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية، جعلت وجه الحياة على الأرض العربية يختلف عن سنوات ليست بعيدة مضت . وقد سبقت الإشارة إلى خروج المرأة للعمل، وضرورة تواجد الطفل بين أقران له فى مثل عمره يمارس معهم أنشطة مختلفة ، وذلك فى مرحلة عمرية تقع بين سن الثالثة والسادسة أى بين حياته داخل الأسرة وارتباطه الوثيق بأفرادها ، بخاصة والدته ، وبين التحاقه بالصف الأول من المدرسة الابتدائية . فقبل سن الثالثة لا يجوز أن نوكل مسئولية تربية الأطفال لفرد أو لمؤسسة غير الأم إلا فى حالة الضرورة القصوى . وفى بحث أجراه مكتب الإحصاءات والمسح السكانى فى المملكة المتحدة سنة ١٩٧٤ ، وهو

بحث اشتهر باسم« Office of Population Censuses & Survery "OPCS" » . أشارت النتائج إلى أن الحاجة إلى مؤسسات رياض الأطفال تكون كبيرة بالنسبة للأطفال من سن ٣- ٦ سنوات ، حيث أجابت ٩٠٪ من الأمهات ممن لهن أطفال فى هذه المرحلة العمرية بحتمية ذهاب الأطفال إلى هذه المؤسسات ، بينما انخفضت النسبة إلى ٤٦٪ من الأمهات ممن لهن أطفال دون الثالثة .

وقد تكرر إجراء هذا البحث فى مناطق متفرقة من المملكة المتحدة ، وكانت النتائج مؤكدة لما سبق .

ولا توجد لدينا أبحاث عربية على حد علمنا ، ولكن الشواهد تبين أن المجتمعات العربية فى الحضر قد أصابها غير قليل من التغيرات التى تستدعى الالتفات إليها ، فيما يختص بآثارها على تربية وتنشئة الطفل العربى فى المرحلة العمرية من ٣ - ٦ سنوات ... فعلى سبيل المثال :

- خروج المرأة للعمل .
- أدى التزايد فى السكان ، خاصة فى المدن الكبيرة أو الصغيرة إلى اضطرار الأسرة للمعيشة فى مساكن محدودة المساحة، الجرى والقفز فيها خطران ، ولكنهما ضروريان للطفل ...
- قلة الفرص المتاحة للطفل للعب مع أطفال فى مثل عمره ، وذلك لقلة المساحات التى تتاح لهذا اللعب خارج المساكن الكبيرة والمتلاصقة .
- حتم التطور الاجتماعى اليوم انبثاق ما يسمى بالأسرة (النووية) التى تتكون من الزوج والزوجة والأبناء ، مما ضيق فرص الاحتكاك الاجتماعى مع الكبار من الأقارب والأصدقاء ، وهذا يؤثر فى نمو الطفل الاجتماعى الذى يمكن أن يتوفر ، إذا وجد الطفل فى مؤسسة فيها كبار وصغار غير الذين يجدهم فى البيت .

- يتعرض الطفل - لساعات طويلة - لمؤثرات تؤثر فيه من خلال البث الاذاعى والتليفزيونى وهو بهذا متصل فى سلبية من النشاط ، ويطوق الطفل إلى أن يكون نشاطا إيجابيا فيعمل وينتج ويتفاعل مع الأحياء والأشياء ، وهذا لايتوفر له فى نطاق سكن محدود المساحة والفرص .
- قد تحول الظروف الاقتصادية لبعض الأسر دون تزويد الطفل بما يحتاجه من لعب وأدوات وأجهزة مختلفة، ينفس فيها عن نشاطه، وينمى من خلالها حواسه ومداركه.
- إن وجود الطفل فى مؤسسة خاصة برعايته وتنشئته وتربيته أمر أصبح ضروريا اليوم . فهى بيئة أعدت خصيصا ليعيش فيها بعد أن اعتاد حياة معينة وسط أفراد أسرته ، وهو مقبل بعد سنوات قليلة على التعلم الابتدائى وفيه من النظم ومحددات الحرية ما لم يقيده بين أفراد أسرته . فإذا كان الطفل فى المدرسة الابتدائية يجلس على مقعد ومدرسته أو مدرسه أمامه فى أغلب الأحيان ، وبين الأطفال أحيانا قليلة .. فإن المرشدة فى روضة الأطفال هى دائما بينهم فى حنان وعطف ومشاركة ، ثم إنه فى المنزل ملتحق بأمه دائما قريب منها .
- روضة الأطفال إذن لها مناخ اجتماعى ووجدانى وعقلى يجمع - إلى حد ما - بين مميزات عهدها الطفل فى الأسرة وبين صفات فى المدرسة الابتدائية ، هى مرحلة أو قنطرة يعبرها الطفل فى لذة وشوق بين الأسرة ومجتمع المدرسة الابتدائية ، حيث يكون فيه واحدا من عديد من الأطفال تراصوا على مقاعد أمام مدرسهم أو مدرستهم .

٤- الحياة فى روضة الأطفال

هناك مجموعة من المسلمات يجدر بنا الأخذ بها :

- هذه المؤسسة بنيت فى مجتمعات غربية بالصورة المعهودة الآن ، ويمكن الاستفادة منها ولكن بتحفظ وحذر .

- للمجتمع العربى ظروفه وتقاليده وأصالته التى يجب ألا تغيب عن الأجيال .
- جدير أن يكون رائدنا المرونة دون التقيد الحرفى بنظام أو منهج ، أو نسق متبع فى ثقافة أخرى .
- هذه المرونة تنطبق أيضا على مختلف أجزاء الوطن العربى ، فما قد يصلح فى دولة عربية ما قد لايصلح فى أخرى ، كما أن الاختلافات قد توجد داخل دولة عربية واحدة باختلاف طبيعة المناطق .
- جدير بنا أن نجعل نصب أعيننا التكوين الخلقى للطفل فى مرحلة ٣ - ٦ ، بحيث يصبح هذا التكوين كل أنشطته الجسمية والعقلية والترويحية والوجدانية ..إلخ .
- عملية تربية الطفل تتسم بالشمولية والتكامل ، فهى تتناول الطفل من جميع نواحيه ، كما تتطلب تكاملا فى هذه التربية بين البيت وروضة الطفل والمجتمع ، وهذا يقتضى ضرورة التعاون المثمر بين تلك المؤسسات الثلاث .

فى ضوء هذه المسلمات ... ما التصور لمؤسسة عربية لروضة الأطفال ؟

٥- الإسلام والطفولة

لا تستطيع تربية الطفل العربى اليوم إلا أن تؤكد قيما إسلامية أصلية وأفكارا تربوية ، نادى بها السلف الصالح فى مضمار تربية أبناء المسلمين . ومع اهتمام التراث العربى الإسلامى الواضح بأمور التربية فى مجالاتها المختلفة ، إلا أن ما كتب عن التربية فى بواكير الطفولة قليل نسبيا ، وإن كان عظيم الشأن . فإن اهتمام الإسلام بالتعليم ظاهر وواضح ، عبرت عنه آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة ، كما أن اهتمام الإسلام بالأطفال والطفولة لقى درجات عالية من التأكيد والحرص ، ظهرت فى اتجاهات العطف والحنو عليهم والمعاملة الطيبة والاهتمام بالفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل منهم ، بل وصل الأمر إلى إتاحة الفرص لأطفال أبناء الفقراء أن يتساووا فى تعلمهم مع غيرهم .

ولعل من دلائل اهتمام المسلمين بالأطفال منذ بواكير الطفولة أن حرم الإسلام قتل الأولاد خشية الفقر ، كما حرم وأد البنات خشية العار وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك صراحة فقال تعالى : (ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وعن وأد البنات قال تعالى : (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) ... ولم يفرق بهذا بين البنين والبنات ، ومنع التفاضل بينهما .

حث الإسلام كذلك على حب الأطفال وحسن تقبلهم منذ الميلاد ، ومن علامات هذا الحب اختيار الاسماء الجميلة للأبناء ، والابتعاد عن الأسماء المنكرة ، ونرى الرسول عليه الصلاة والسلام يسمى أحفاده الحسن والحسين ، وقال فى ذلك عليه الصلاة والسلام «حسنوا أسماءكم» .

تقبيل الطفل وهدهدته أمر مستحب فى الإسلام ، وقد أكده الرسول عليه الصلاة والسلام فى مناسبات كثيرة وضرب المثل بملاعبته للأطفال ، وأمر الآباء بملاعبة أطفالهم حتى يكبروا قال : (لاعبوهم لسبعة) أى حتى يبلغوا سن السابعة ...

وكثرت المؤلفات التى ترشد الأباء إلى نواحى مداعبة وملاحظة الأطفال فى هذه المرحلة من العمر التى تشكل فيها شخصية الطفل ... فابن الجزار القيروانى يدعو إلى تعويد «الطفل بعادات الهدوء وعدم الإكثار من البكاء ، وأن ينغم له حتى ينام ويعتاد الأصوات اللذيذة لأنها مريحة للنفس والطبيعة» كما ينهى عن تخويف الأطفال بالقصص المرعبة والمناظر البشعة والأصوات المزعجة ...

ويقول ابن قيم الجوزية فى ذلك ... «ينبغى أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة .. فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره ...» (*) .

(*) محمود قمبر : ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر ١٩٨٣ م .

ولكن هذا الحب وهذا التدليل بعيدان عن الإفراط والمبالغة ، حتى لايؤديا إلى سوء تربية الطفل ، بل إن العقوبة واللوم كانت واجبة عند اللزوم .

ويركز ابن سينا فى كتابه (القانون) على تربية الطفل والعناية به جسميا وحركيا وغذائيا ، حتى ينمو فى صحة وسلامة ، ويتناول كل ذلك بالتفصيل الدقيق والتوجيه الواضح .

ويتفق قادة المسلمين على أهمية الأسرة فى تربية الطفل فى سنوات عمره المبكرة، ويؤكدون على أثر العلاقات الطيبة بين أفراد الاسرة فى حسن تنشئة الأطفال ، وفى ذلك رعاية إنسانية للطفولة وتكريم للأسرة . كما اهتموا بتوفير الحاجات المادية والمعنوية للأطفال ، وتهيئة البيئة الصالحة لهم لكى يلعبوا ويلهوا مع الرفاق من مثل سنهم . ويذكر ابن سينا بعض الرياضيات المناسبة فيقول «ومن أصناف الرياضة اللطيفة اللينة الترجح فى الأراجيح ، والنهوض قائما وقاعدا ومضطجعا ، وركوب الزواريق والسماريات ، وأقوى من ذلك ركوب الخيل والجمال والعماريات وركوب العجل ... ومن الرياضيات القوية الميدانية اللعب بالكرة ، والصولجان ، والمصارعة ، وركوب الخيل واستقطافها ... » (*) .

وفى سن السابعة تبدأ مطالبة الطفل ببعض المسؤوليات فيتمرن على أداء الصلاة ولا يجبر على الصوم إلا فى الثالثة عشرة ... ونهى المسلمون عن تشغيل الصغار وتقع مسؤولية إعالتهم على أبائهم أو القيمين عليهم ، أو على السلطات الحاكمة إذا لم يكن له أهل وأوصياء .

يستخلص من هذا أن التربية فى الإسلام وضعت مبادىء ، تكفل حق الأطفال فى التمتع بحياة الطفولة الحرة ... ولا تقتضى حرية الطفولة ترك الأطفال لطبيعتهم تنمو فى عشوائية وهمجية ، بل لابد من تعلم وتهذيب فى حدود إمكانيات الطفل .

(*) محمود قنبر : ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر ١٩٨٣ م

الكتاتيب والخلاوى

نشط المسلمون منذ زمن بعيد فى الاهتمام بتربية الطفل فى المرحلة العمرية، التى تسبق انتظامه بأحد الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب وحفظ القرآن الكريم ، والتى تبدأ بعد سن السادسة أو السابعة . كان الآباء يهتمون بإكساب الطفل العادات والمهارات والقيم المرتبطة بآداب الأكل واللباس والسلوك ، ومن التخاطب التعامل مع غيرهم ، مما يعود الطفل على حسن التفاعل مع الأحياء والأشياء ... ولم تأخذ هذه التربية المبكرة التى اضطلعت بها الأسر فى المجتمع الإسلامى طابع التعليم، وتهيئة الطفل ذهنيا وجسميا واجتماعيا قبل دخوله فى التعليم النظامى ، والذى كانت تنهض به الكتاتيب .

والظاهر أن التعليم فى الكتاتيب والخلاوى اتخذ منهجا له هو فى الاساس تعليم دينى أخلاقى يهتم - بالدرجة الأولى - بتحفيظ القرآن وأساليب الدين الحنيف، ويمكن القول أن المناخ التربوى فى الكتاب كان رائعا ، بمعنى أن العلاقة بين الأطفال ومن يعلمهم كانت تتسم بالمودة والتآلف ، بل إن كل طفل كان يعامل معاملة فردية بحسب ماتسمح له قدراته العقلية والجسمية ، إذ كان الأطفال يشتركون جماعات فى تلاوة القرآن، مما يزيل الخجل أو التلعثم عند بعضهم .

كما كان التعاون سائدا بين الأطفال بعضهم والبعض الآخر ، فيساعد الذى حفظ زميله الذى لم يستطع الحفظ . كما كان اهتمام الآباء بما يحدث لأطفالهم من تقدم أمرا مشجعا سواء لمن يعلم أو من يتعلمون . ربما كانت هناك حوافز مادية ومعنوية لمن يجيد الحفظ والتعلم، وكاد يقتصر التعلم على معرفة بعض الكتابة والقراءة والحساب، وكان هذا فى وقته شيئا مقبولا جدا ، وإنجازا يحمد عليه الأطفال ومعلمهم.

٦- ماذا يحدث الآن ؟

مرت قرون لم ينل خلالها الأطفال فى بواكير طفولتهم اهتماما بأمور تربيتهم الفاعلة اللهم ، إلا فى نصائح وتوجيهات ، نادى بها بعض المفكرين دون أن تنال الالتفات اللازم سواء فى مجتمعات عربية أو غربية ... فلم نسمع (على قدر علمنا) بإنشاء مؤسسات ترعى الأطفال قبل سن السادسة ، ولها مخططات محددة أو حتى غير محددة. وربما كان القرن الثامن عشر فى أوروبا شاهدا على محاولات فردية فى هذا السبيل، قام بها السويسرى بستالوتزى ، وأعقبه الألمانى فرويل وقد سبقهما بقرنين من الزمن القس الموارفى جون أموس كومنيبوس (كومنسكى) [١] .

غير أن التطورات التى حدثت فى المجتمعات الغربية والعربية ، وربما فى مجتمعات أخرى قد أطلقت سهام الاهتمام بهذه المرحلة المبكرة فى حياة الفرد ، خاصة بعد ازدهار علم النفس ، وبالذات علم نفس الطفولة ، فقد صار هناك اهتمام واضح بمرحلة الطفولة المبكرة ، أى حتى سن السادسة مما فجر أنشطة متنوعة ، تتناول حياة الطفل ومتطلباتها قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية .

غير أنه مع الأسف الشديد قد دفع الحماس المبالغ فيه إلى أفعال وأعمال ربما تضر بأطفال تلك المرحلة ، هى أفعال مصدرها فهم غير واع بنفسية طفل تلك المرحلة، وما يجب أن يبذل لتربيته فيها ، وكان اندفاعا فى تبصر غير سليم يجعلنا نطلق تحذيرات حتى لايستشرى الأمر .

وثمة ملاحظة يجب أن تطلق فى قوة ، وهى أن العقوبة فى أمور التربية غير مقبولة ، كما أن الانقياد لرغبات أولياء الأمور، مما يتنافى مع المبادىء النفسية وأمور

---

(١) سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١ .

التربية أمر له خطورته وتبعاته غير المستحبة ، ولهذا فإننا نحاول إلقاء الأضواء على أهداف تربية الطفل فى هذه المرحلة ، محذرين من تحويل رياض الأطفال إلى مؤسسات أصبح معظمها يعلم الصغار القراءة والكتابة والحساب والاهتمام بالواجبات المدرسية ، مما أطاح بالأهداف الحقيقية وجعل التعليم الابتدائى يبدأ فى سن الرابعة والخامسة ، وهذا يؤدى إلى طمس معالم الحياة فى رياض الأطفال .

ولذلك .. ففى تصورنا أن مؤسسة رياض الأطفال فى مجتمع عربى يجب أن تهدف إلى تحقيق أغراض معينة نوردها فيما يلى : وهى مأخوذة من كتاب «تربية الطفل قبل المدرسة» من تأليف د. سعد مرسى أحمد و د. كوثر حسين كوجك ، ونقلنا هنا أهداف رياض الأطفال كما وردت في كتابنا هذا الذي بين يديك ووردت في الفصل الثانى من الكتاب ثم عرضت الورقة احتياجات المجتمعات النامة كما وردت هنا في الفصل الثالث من الكتاب .